

عائد من متاهة الحياة

د. عمر الكرمة



عائذ من متاهة الحياة

و. عمر الكرمة

دار القلم

لا يجوز نشر هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من الأشكال، أو نسخ مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله على أي نحو بطريقة إلكترونية أو بالتصوير أو ترجمته إلى أية لغة أخرى دون الحصول على موافقة المؤلف والناشر مقدّمًا.

No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted, in any way from or by any means; electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without the prior written permission of the author and the editor.

- ❖ الكتاب: عائد من متاهة الحياة
- ❖ المؤلف: د. عمر الكرمة
- ❖ نوع العمل: التنمية البشرية وتطوير الذات
- ❖ مراجعة لغوية وتدقيق: الأستاذ عبد العزيز فتيان
- ❖ الطبعة الأولى: 1444 هجري - 2023 ميلادي، الرباط
- ❖ الناشر: دار القلم للنشر والتوزيع، الرباط
- ❖ رقم الإيداع: 2023MO0109
- ❖ الترقيم الدولي: 978-9920-626-82-8

كل ما ورد في هذا الكتاب من أخبار أو أحداث أو آراء يعبر فقط عن رأي الكاتب، ولا يعبر بالضرورة عن رأي الناشر.

جميع الحقوق محفوظة

إهداء

إلى والديّ الغاليين.

إلى التي حملت وأنجبت وربّت،

إلى التي أعطت دون منع وبذلت دون ادّخار،

إلى التي غمرتني بحنانها وعطفها منذ نعومة أظفاري،

إلى التي لا يمرُّ عليّ يومٌ يهنأ لي فيه بالٌ إلا إذا قبّلت رأسها،

إلى الشمس التي تضيء ظلمتي والقمر الذي ينير دربي،

إلى أمّي غاليّتي.

حفظك الله وأطال عمرك.

إلى الذي بالكاد أتذكر ملامح وجهه،

إلى الذي فارقني وأنا ابن اثنتي عشرة سنة،

إلى الذي مازال طيف حنانه يعانق مخيلتي،

ومازال الشوق إليه بداخلي يكبر يوماً بعد يوم،

إلى الذي تمنيت لو قضيت معه مزيداً من العمر،

إلى الذي كان دائم القول لي: "إيّاك والتقصير في الصلاة!"،

إليك يا أبي الغالي.

رحمك الله وأدخلك فسيح جناته.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بين زوربا للحياة

دار القلم

مقدمة

لي الشرف أن أضع بين أيديكم أول كتاب لي أولفه وأناامل خطت هذه السطور وكلها أملٌ أن تحمل لكم كل ما هو راقٍ من كلمات وأفكارٍ وعبر.

لطالما كانت الكتب مصدر شغفٍ وعشقٍ لي ولل كثير من الناس غيري.

فكم أحببنا التجوال والاستمتاع بين صفحات كتبٍ اغترفنا منها الكثير من المعارف والحكم.

وكم قضينا من الأوقات التي لا تُنسى بين أحضان كتابٍ ظلَّت عباراته محفورةً في ذاكرتنا وكأن ذلك الكتاب أصبح جزءًا لا يتجزأ من حياتنا.

فهذا الكتاب الذي بين أيديكم هو بكل بساطةٍ نتاج ما ألفتَه خلال مدةٍ من الزمن ليست بالقصيرة، أحاول من خلاله التطرق إلى مجموعةٍ من المحطات التي قد يمر المرء منها في حياته، وانعكاسات ذلك على نفسيَّته بالدرجة الأولى.

عائذ من متاهة الحياة

ناهيك عن آثار ذلك على طريقة تفكيره وطبيعة تصرفاته، محاولاً في نفس الوقت إبراز دور العامل الديني والاجتماعي وحتى الثقافي في ذلك.

راجين من الله عزَّ وجل أن ننتفع به وننتفع.

١

مع الله

عائز من متاهة الحياة

يمرُّ المرء خلال حياته بفتراتٍ يجد نفسه فيها في أمسِّ الحاجة إلى سندٍ يكون له ذراعًا تقيه وتخفّف عنه وطأة السُّقوط، ويكون له ساعدًا على مشقّات ومصاعب الحياة.

فطبيعة الإنسان في هذه الحياة تجعله غير مستقر الوضع، إذ تتوالى عليه أوقات اليسر والعسر فتجده متأرجحًا بين هذا وذاك، فالمرء بطبعه ميّالٌ أشدَّ الميل لحياةٍ يملؤها الرّغد والاستقرار وطيب العيش وغيرها ممّا لَدَّ وطاب من نعم وخيرات الدنيا.

في هذه اللّحظة بالضبط، يأتي دور ذلك الرابط الذي يجمع الإنسان بربه ويُقوّي صلة العابد بمعبوده، فالمرء عبارة عن جسدٍ وروح.

أمّا الأول فهو مزيجٌ من عظامٍ يكسوه لحمٌ ثم جلدٌ ناهيك عن الشرايين والأوردة والأعصاب وباقي الأعضاء الوظيفية والتي لا بد منها للحياة، وأمّا الرّوح فهي الجوهر الحقيقي للإنسان، وهي أساس كل ما يسمو به عن باقي الموجودات...

عائدة من متاهة الحياة

بصياغة أدقّ، فالجسد هو قالب الروح ووعاؤها، وهو المسؤول
أيضًا عن تلك النزوات والشهوات البيولوجية من أكلٍ وشربٍ ونومٍ
وغير ذلك، أمّا الرُّوح فهي لبُّ المرء وأساس ماهيّته.

أمّا من منظورٍ علميٍّ محض، فالجسد يمثل كل ما هو عضويٌّ في
الإنسان، عكس الروح التي لا نعرف لها طبيعةً فيزيائيةً.

فذاك الفراغ الروحيُّ الذي يرهق المرء ويُضني عيشه ويحيط به
من جميع جنباته، لا يمكن التخلص منه إلا عن طريق تقوية أواصر
الترابط بين الخلق والخالق.

فذاك الحبل الذي تركه الله عزَّ وجل ممدودًا لعباده بدون
استثناء، الصغير منهم والكبير، الشكور منهم والجحود، الطائع منهم
والعاصي...، ذاك الحبل نفسه هو الذي يجب على المرء اللجوء إليه
ليس فقط عند كل ضائقةٍ تمرُّ به، بل كذلك عند كل نعمةٍ تحلُّ به.

عائدة من متاهة الحياة

فمن حاز المعنى الحقيقيَّ للعبد الشُّكور تجده يعلم تمام العلم
ويوقن كل اليقين أن شُكر ربه لا يكون فقط وقت الرِّخاء والنَّعم، بل
يكون كذلك وقت السُّدة والنِّقم.

فها هو "أبو بكرٍ الصِّديق" رضي الله عنه يغمر قلبه الحزن في غار
ثورٍ خوفًا على رسول الله -عليه الصَّلَاة والسَّلَام- من الكفار ومن
بطشهم، ومخافة انقطاع الوحي والرسالة، فما كان ردُّ رسولنا عليه
الصَّلَاة والسَّلَام إلا أن قال:

"لا تحزن إنَّ الله معنا."

وها هم قوم "إبراهيم" -عليه السَّلَام- يهُمُّون بحرقه، فيأتيه
"جبريل" -عليه السَّلَام- سائلًا إياه:

"ألك حاجة؟"

فردَّ عليه السَّلَام: "أما إليك فلا، وأما إلى الله فنعم."
وها هي أمنا "هاجر" -عليها السَّلَام-، إذ يهُمُّ خليل الله "إبراهيم"
بتركها هي وابنها الرضيع وسط شمسٍ ملتهبةٍ وصحراءٍ قاحلةٍ، لا
طعام فيها ولا ماء، بل ولا طيرٍ يطير فيها ولا وحشٍ يسير!

عائدة من متاهة الحياة

فما كان لها إلا أن سألته: "الله أمرك بهذا؟"

فقال: "نعم."

فقالت: "إذن، لن يضيعنا الله."

هذه القلوب التي تفيض ثقةً بالله عزَّ وجل وفوضت كل أمورها له، ليس فقط إيماناً وإجلالاً، بل يقيناً وتأكداً من قدرة الله عزَّ وجل، فأمره بين الكاف والنون، إذا أراد شيئاً فإنما يقول له كن فيكون.

"فهو الذي بيده مقاليد الأمور يقبّلها كيف يشاء."

كن مع الله ولا تبال:

وقت الشدة ووقت الرخاء.

وقت الحزن ووقت الفرح.

وقت الفشل ووقت النجاح.

وقت العسر ووقت اليسر...

كن مع الله أينما ووقتما وكيفما كنت، وتذكّر دائماً:

"إذا كان الله معك فمن عليك؟"

وإذا كان الله عليك فمن معك؟"

٢

السَّلام عليك يا رسول الله

بكى رسول الله عليه الصَّلَاة والسَّلَام يوماً، فقالوا:

"ما يبكيك يا رسول الله؟"

فقال: "اشتقت لأحبابي،"

قالوا: "أولسنا أحبابك يا رسول الله؟"

قال: "لا أنتم أصحابي، أما أحبابي فقومٌ يأتون من بعدي يؤمنون

بي ولم يروني."

عائدة من متاهة الحياة

السَّلَام عليك حيًّا وميتًا يا رسول الله.

السَّلَام عليك حين نزلت دموعك الشريفة على خديك شوقًا وحنينًا
إلينا.

السَّلَام عليك يوم أُحُدٍ، يوم سُجِّ وجهك الشريف وكُسِرت رباعيتك،
فدعوت قائلًا:

"اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون."

السَّلَام عليك يوم حُيِّرَت بين الخلود في الدنيا وبين لقيا ربك فرددت
قائلًا:

"بل الرفيق الأعلى، بل الرفيق الأعلى."

السَّلَام عليك يوم تقوم فينا فتخاطب ربك قائلًا:

"أمتي...أمتي يا رب...!"

السَّلَام عليك دائمًا وأبدًا يا رسول الله.

عائدة من متاهة الحياة

"وما أرسلناك إلا رحمةً للعالمين"

هذه الرحمة التي لو تأملت فيها ولو قليلاً ستجدها تنبثق من صميم القلب وينابيعه، حاملةً معها اهتماماً لا ينتقي ولا يفاضل بين هذا وذاك، بل يحيط بالكل محاولاً جاهداً العبور بهم إلى ضفة الأمان.

هذه الرحمة التي لطالما تجسدت في أفعال رسولنا عليه الصلوة والسلام، مع الصغير والكبير، الرجال والنساء، المسلم وغير المسلم، بل حتى مع الحيوان والجماد.

هذه الرحمة بتفاصيلها هي ما نحتاجه في حياتنا اليومية داخل مجتمعاتنا وبيوتنا، هي ذلك السر الخفي وراء قدرة المرء على العيش بطريقة سليمةٍ دونما ميلٍ لاستضعاف الآخرين وظلمهم. هي ذلك الأسلوب الرفيع الذي يفتح الأبواب قبل القلوب، ويسقي أفئدة الناس بعد طول عناءٍ ومشقةٍ.

عائنة من متاهة الحياة

"كان خلقه القرآن"

خُلِقَ ما بعده خُلِقَ!

خُلِقَ يُدْخِلُ القلوب دون استئذانٍ، ويفتح لك الأبواب ويقرب
إليك النفوس ويؤلفها رغم اختلافها.

فكيف لنا أن نتصور كيف يكون حال رجلٍ تنهلُ أخلاقه من منابع
القرآن الكريم!

كيف هو حال تعامله مع الناس؟
كيف هو أسلوب حياته الذي يجذب إليه الصغير والكبير؟

كيف كان هذا المنهج الفريد من نوعه الذي كان يعمل به في الحياة
حتى استطاع توحيد قلوب العرب والعجم على دينٍ واحد؟
بل وخلق بينهم تآلفًا وتراحمًا جعلهم يتعايشون كالإخوة فيما بينهم
حتى وإن اختلفت أرحامهم؟

كيف لنا أن نتخيل ولو محاولين مبادئ وشيم رجلٍ فاق الخلائق
خُلُقًا وخُلُقًا صلوات ربي وسلامه عليه!

وأحسنُ منك لم ترَ قَطُّ عيني

وأجملُ منك لم تِلِدِ النساءُ

خُلِقْتَ مبرءًا من كل عيبِ

كَأَنَّكَ قد خُلِقْتَ كما تَشَاءُ

حَسَّانُ بن ثابت

عائدة من متاهة الحياة

لكن المعلوم الذي لا ريبه فيه هو أن هذه المكارم من الأخلاق التي
بُعِثَ عليه الصَّلَاة والسَّلَام من أجل إتمامها، هي ما علينا أن نتشبع بها
وندعها تتغلغل في أعماقنا وتداعب نفوسنا.

فالمجتمعات والحضارات لا تقوم إلا بالحفاظ على قيمها ومبادئها
وأخلاقها، غير ذلك فحالها كحال الذي يسكب الماء في الرمل، لا هو
انتفع به ولا هو تركه لغيره ممن هو في حاجة له.

"إنما الأمم الأخلاق ما بقيتُ

فإن هم ذهبَ أخلاقُهُم ذهبوا"

أحمد شوقي

عائز من متاهة الحياة

صلُّوا على الذي بُعثَ رحمةً للعالمين،
صلُّوا على الرحمة المهداة والنعمة المسداة،
صلُّوا على من انشق له القمر،
وبكى لفراقه الشجر،
وسبَّح في يده الحجر،
صلُّوا على سيِّدِ الخلائق و صفيهم،
من بكى حنيناً وشوقاً لرؤيتنا،
من يقوم فينا فينادي يوم القيامة "يا ربَّ أمّتي، أمّتي..."
صلُّوا على بدر الضياء ونور الهدى،
صلُّوا على من تدخلون بشفاعته دار السّلام،
صلُّوا على من علّمنا الحب،
وأخى القلب بالقلب،
وفتح للخير كل درب،
صلُّوا على من وُلدَ يتيماً،
وعاش كريماً،
ومات عظيمًا،
صلُّوا على سيدنا محمد وسلّموا عليه تسليماً كثيراً.

٣

وبالوالدين إِحسانا

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾

الإسراء، 23

عائنة من متاهة الحياة

تأمل (ي) عزيز(ت) ي القارئ(ة) الفعل الذي ابتدأت به هذه الآية الكريمة "وقضى"، بمعنى ألزم وأوجب على عباده ما يلي من الأحكام التي ستذكر فيما بعد، وفي ذلك دلالة واضحة على أهمية ومكانة هاته الأحكام والانصياع لها، فمن غير المعقول أن يمر المرء على هكذا تعبير دون إعارته ما يكفي من الانتباه لفهم معناه الحقيقي، واستيعاب المراد منه.

ثم بعد ذلك وما أثار إعجابي وانبهاري هو كون الآية قد قرنت بين عبادة الله عز وجل والتي هي أسمى أهداف الوجود، وبين الإحسان للوالدين والبرّ بهما.

فمباشرة بعد وجوب أمر العبادة لله عز وجل، ألزمت الآية برّ الوالدين ومعاملتهم بحسن، والكلام معهما بأدبٍ ولباقةٍ وغيرها من أشكال البرّ، وهذا من تعظيم مكانة الوالدين في ديننا، وهذا لا يقتصر فقط على هذه الآية، بل ويشمل عدة مواضع أخرى في القرآن الكريم وفي السنة النبوية الشريفة أيضًا.

"أمك، ثم أمك، ثم أمك!"

أتذكر مرةً عندما كنت صغيراً وأنا أَلعبُ في زقاق حَيِّنا، إذ بي أتشاجر مع صبيٍّ آخر، فدخلت على أُمِّي وأنا أذرف الدموع، فسألَتني بنبرةٍ تُخفي وراءها كثيراً من الغضب قائلةً:

"من اعتدى عليك يا بني؟"

هذا السؤال الذي لم يفارق ذاكرتي لهذه اللحظة التي أخذت فيها هذه السُّطور، فكُلما تمعننت في طريقة طرح السؤال وجدته فيأضاً بالعاطفة والحنان.

فمن باب المنطق أن يكون السؤال المحايد هو:

"ماذا جرى معك يا بني؟"

لكن طبيعة الأم دائماً ما تغلب عليها العاطفة والميول تجاه أولادها وفلذات كبدها، ففي اللحظة التي رأَتني باكياً، وقع في ذهنها انطبأُ مفاده أنه مهما كان الذي قد جرى معي، فأنا هو الطرف المظلوم أو المعتدى عليه من دون شك، دون الحاجة أصلاً إلى استبيان الواقعة أو إلى الاستماع للطرف الآخر.

عائدة من متاهة الحياة

هذه العاطفة المنقطعة النَّظير، هي نفسها تلك العاطفة التي كانت تدفع أمي إلى أن تنهض من سريرها في دجى الليل لتتفقد أحوالي وأنا نائمٌ، فتجدني تارةً ملقًى من فراشي على الأرض، وتارةً أخرى وأنا أرتعش بردًا، فتلفني بغطاء حنانها وتسقيني من بئر عطفها.

وهي ذاتها تلك العاطفة التي كانت تدفعها لتمد لي أجود ما يكون حاضرًا من الطعام والشراب ونحن نجتمع على مائدة الأكل، وتفضّلني حتى على نفسها!

وهي تلك العاطفة التي كانت تدفعها لتصحو من النوم باكراً كل صباحٍ لترسلني للمدرسة، سواءً أكان الجو صحواً، أم بردًا، أم ممطرًا...، علّها تحصد في يومٍ من الأيام ثمار ما زرعت حينها، وترى ابنها يتسلق سلم النجاح ويحجز له مكاناً بين عليّة القوم.

فالأمُّ هي تلك المرأة العظيمة التي قد تضحي بنفسها إن تطلّب الأمر ذلك في سبيل أن يكون أبنؤها على خير ما يرام.

عائدة من متاهة الحياة

هي تلك المرأة المُحبة الحنونة التي كبرنا بين يديها، وفي دفة قلبها احتمينا، ومن عطائها ارتوبنا.

تبقى كما هي دائماً ولا تتغير، في صغرها وفي كبرها، في حياتها وحتى بعد مماتها.

الأُمُّ عطرٌ يفوح شذاه فيُنْعِش مشاعرنا، وعبيرٌ يسمو في علاه فتزدان به دروبنا.

مع كل إشراقة شمسٍ نرى صورتها أمامنا، ومع كل تغريدة طيرٍ يملأ صوتها النَّاعم ويُطرب مسامعنا.

عندما تنقضُّ علينا الأفكار وتزورنا الأحزان، عندما تضيق صدورنا بالهموم ونتيه في غياهب الظلمات، عندما نحتاج إلى وطنٍ يحمينا وصدراً ياؤينا، ننادي بكل بساطة،
"أُمِّي!"

الأُمُّ هي ذلك الوطن الذي يحتضنك ويأويك عندما يخونك الجميع.

عائدة من متاهة الحياة

هي تلك التي إن طلبت منها عمرها وهبته لك دون مقابلٍ أو تردّد،
هي مِداد الحبِّ وينبوع الحنان.

"الأُمُّ بكلِّ بساطةٍ هي الحياة."

الأمُّ مدرسةٌ إذا أعددتها

أعددت شعبًا طيب الأعراق

الأمُّ روضٌ إن تعهده الحيا

بالري أورك أیما إیراق

الأمُّ أستاذة الأساتذة الألى

شغلت مآثرهم مدى الآفاق

حافظ إبراهيم

"حدثوني عن الأب فقالوا!"

يُروى أن شابًا نشأ نشأةً فارهةً بحيث استطاع والده أن يوفر له كل احتياجاته منذ الصغر، حتى أصغر الكماليات، ولم يبخل عليه بأي شيءٍ، فأدخله أحسن وأعلى المدارس، وعندما كُبر اشترى له سيارةً فخمةً حتى يتباهى بها وسط زملائه.

ولكن هذا الشاب في الواقع كان لا يرى أي وجودٍ لوالده في حياته، وكان أصدقاؤه هم أهم الأشخاص لديه، فكان يرى أنهم أهم حتى من والده ووالدته، بالرغم من أنه لولا الأموال التي كان يحصل عليها من والده، لما استطاع أن يخرج معهم، أو يركب سيارته الفاخرة، أو يذهب معهم إلى تلك الأماكن الراقية.

وكان والده كلما طلب منه أن يجلس معه قليلاً ليتكلم معه في شؤونه أو من أجل أن يلعبا الشطرنج مثلاً، أو أي أمرٍ من الأمور التي يمكن أن تجمع الأب مع ابنه، أشاح بيديه أو تجاهله أو أجاب قائلاً:

"عندما أعود، لأني مشغولٌ الآن!"

عائز من متاهة الحياة

أو أي شيء من هذا القبيل، ذلك لأنه كان يرى أن والده كبير في السن، ولن يستطيع أن يتماشى مع أفكاره العصرية أو يفهم تصرفاته التي تتماشى مع روح العصر، فوالده من الجيل القديم!

وحتى عندما كان ينصحه بعمل شيء ما أو يأمره بأن يمتنع عن فعل شيء خاطئ، كان هذا الشاب يشعر بالغضب الشديد ويتجاهل كل ما كان يقوله والده، أو يقوم بعمل عكس ما كان يأمره به.

حتى حدث أمرٌ هزَّ كيانه بقوة، ففي أحد الأيام بينما كان جالسًا مع أقرب صديق له، إذ بهاتف صديقه يرين، وعندما ردَّ هذا الأخير على الهاتف بدت على ملامحه آثار الصدمة وأجهش في البكاء، فقد تُوفي والده فجأةً، وكان هذا الصديق يتعامل مع والده بنفس الطريقة السيئة التي كان يتعامل بها هذا الشاب مع أبيه.

وفي ذلك الوقت بدأ هذا الشاب يتذكر والده ويتذكر الطريقة التي كان يعامله بها، ويتذكر كيف كان والده يطلب منه دائمًا أن يجلس معه وهو يرفض باستمرار، فشعر بالندم الشديد، وخاصةً بعدما سمع

عائدة من متاهة الحياة

حديث صديقه عن والده، وكيف أنه فوّت كثيراً من اللحظات التي كان يمكن أن يقضيها معه.

عندما عاد هذا الشاب من جنازة والد صديقه، ذهب مباشرةً صوب والده وقبّل يديه واعتذر له عن تصرفاته السابقة، وقرر ألا يعود لمثل تلك التصرفات أبداً لأن الحياة قصيرة جداً، وربما يفقد والده في أي لحظةٍ فيندم حين لا ينفع الندم.

خاطب أبُّ ابنه يومًا قائلاً:

"حاذر أين تضع قدمك يا بني."

فردَّ الابن قائلاً:

"بل احذر أنت يا أبي، فأنا أتبع خطواتك فقط!"

عائدة من متاهة الحياة

الأب يا أعزائي له في قلب أبنائه من المكانة والمقام ما ليس لغيره،
مقامه شامخٌ ومنزلته كبيرة، فهو السند والحب والاحتواء والحنان في
الوقت نفسه، وهو الذي يبذل قصارى جهده دونما أي تقصيرٍ حتى
ينعم أبنأؤه بحياةٍ رغدةٍ وهنيئة.

الأب هو ذاك الصديق الذي تتشارك معه أسرارك وتلجأ إليه وقت
الضيق، هو ذاك الشخص الذي تمسك بيده وقت الشدة فلا يعرف
الخوف إليك سبباً.

تجاعيد وجهه تحكي الكثير، فما بين تجعيدةٍ وأخرى ترسم
تفاصيل شخصيته بدقة، وتتهياً لنا بعضٌ من تلك الذكريات التي
خضناها معاً.

هو الذي يعلمنا معنى الحياة ويرشدنا ونحن نقطع دروبها، فننتعثر
حياناً ونسقط أحياناً أخرى، فيأخذ بأيدينا ويربت على أكتافنا فنواصل
المسير.

"الأب نعمةٌ عظيمةٌ لا يعلم قدرها إلا من فقدها."

عائز من متاهة الحياة

الأب هو ذاك الشخص الذي نُكن له كل الاحترام بل ونُزله مكانةً لا ننزلها أحدًا غيره.

ولنا في خليل الله "إبراهيم" -عليه السَّلام- قدوةٌ حين خاطب أباه قائلاً:

﴿يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا﴾

مريم، 44

فتلك الصبيغة التي وردت في لفظ النداء إنما هي تعبيرٌ عن الكثير من التوقير والاحترام الذي يكنه "إبراهيم" لأبيه وإن كان على ما هو عليه من الشرك والضلال، فعلى الرغم من ذلك لم ينتقص خليل الله من قدر أبيه ولم يخاطبه بكلماتٍ تدل على الازدراء أو التقليل منه.

وكذلك "إسماعيل" -عليه السَّلام- حين خاطب أباه قائلاً:

﴿قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنِ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾

الصفات، 102

عائدة من متاهة الحياة

والشيء ذاته مع فتاة مدين حين استسقى لها "موسى" -عليه
السّلام- فاقترحت على أبيها أن يستأجره قائلةً:

﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾

القصص، 26

هؤلاء لم يعبروا عن احترامهم لآبائهم ابتداءً ورياءً أبدًا، بل زرع
فيهم ذلك منذ صغرهم ونشؤوا عليه، وما بر الآباء والإحسان إليهم
إلا دليلًا على جودة الأصل والمعدن .

فإذا كانت الأوامر الربانيّة تقتضي أن طاعة الوالدين والاعتناء بهما
وحسن معاملتهما من قولٍ وفعلٍ حسنٍ مقترنٌ بطاعة الله عزّ وجلّ،
فالأولى هو التسابق والتنافس في ذلك لمن كانت له نهيةٌ يعقل بها!

فالوالدان هما بابان من أبواب الجنة التي تحلو وتطيب الحياة
معهما، وتغدو مرةً نكدةً بذهابهما!

٤

كن عند الشَّدائد رجلا

عائدة من متاهة الحياة

أتذكر ذات مرة وأنا في الثانية عشرة من عمري، إذ بي أستيقظ صباحًا من فراشي فأجد بيتنا ممتلئًا عن آخره بالناس، بحيث أكاد لا أجد ركنًا أو زاويةً ولا حتى موطئ قدمٍ فارغًا.

اتجهت مسرعًا إلى أمي فوجدتها محمرة العينين ذابلة الوجه، وعلامات البكاء والإرهاق باديةً على ملامح وجهها، قبّلت رأسها كما هي عادتي كل صباح، لم تنطق أمي بكلمة واحدة، تبعثني وأنا متجهٌ إلى غرفة والدي لأتفقد حاله.

كان والدي مريضًا تلك الأيام، وكان مرضه قد اشتدّ عليه في تلك الآونة الأخيرة، فتحت باب الغرفة ففُجعت من هول ما رأيت؛ وجدت أبي ملقًى على فراشه مغمض العينين، لا تبدو عليه أدنى مظاهر أو أشكال الحياة.

توجهت إليه مسرع الخطى، حاولت إيقاظه فلم يستجب لي، حاولت ثم حاولت جاهدًا وظللت أحاول حتى نال مني اليأس لكنه لم يستجب، كانت أمي ومن معنا من أفراد عائلتي يحاولون تهدئتي لكن دون جدوى.

عائدة من متاهة الحياة

بدأت أصرخ والدموع تهطل من عينيّ دونما توقف:

"أبي استيقظ... استيقظ يا أبي... استيقظ رجاء...!"

"رجاء استيقظ يا أبي...!"

توالت الصرخات الواحدة تلو الأخرى وأنا عاجزٌ عن التحكم في نفسي والتهدئة من روعي.

لمست يده فوجدتها شديدة البرودة، حاولت تحريك ذراعه فوجدتها ثقيلةً على غير العادة، كانت غير قابلةٍ للثني، أثار انتباهي شريطٌ من القماش الأبيض يلف رأسه بحيث بدا لي أنه يمنع فاهُ من أن يظل مفتوحًا.

فأيقنت في هذه اللحظة شيئًا واحدًا ووحيدًا:

ملك الموت زار بيتنا!

"ملك الموت زار بيتنا!"

زارنا ملك الموت في بيتنا وأخذ معه واحدةً من أعرّ الأرواح إلى قلبي إن لم تكن أعزها على الإطلاق، غادر أبي دار الفناء إلى دار البقاء دونما وداع.

لا أتذكر آخر حديثٍ خضته معه، ولا أتذكر آخر إبريقٍ شايٍ احتسيناه معًا، بل ولا أتذكر حتى آخر كلمةٍ قالها لي.

غادرنى ذاك الحصن المنيع الذي كنت ألجأ إليه وقت الشدة دونما سابق إنذار، أحسست بنفسي تائهاً وسط عالمٍ مظلمٍ أكاد لا أميز فيه يميني عن يساري، ولا أتحمّس فيه بصيصًا من النور في الأفق علّه يكون سبيلًا للنجاة مما حل بي.

استعدت وعيي على صوت أمّي وهي تقول لي:

"يا بني اصبر، اصبر..."

"فإن موعدنا معه الجنة إن شاء الله."

عائِد من متاهة الحياة

أدركت في تلك اللحظة أنه لم يكن كابوسًا أمر به، بل حقيقةً
وجب عليّ تقبُّلها، حقيقةً مفادها أنني لم أعد منذ تلك اللحظة تحت
كنف ورعاية ذلك الرجل الذي أتيت من صلبه، ذلك الرجل الذي كان
لي بمثابة الفارس المغوار الذي يدافع عني في كل صغيرة وكبيرة،
وبمثابة الجندي الذي يستमित في سبيل وطنه ويُلبي نداءه كما
احتاج إليه.

أدركت حينها أنه لا مفرّ من تقبُّل الحقيقة وإن كان وقعها صعبًا
على نفسي:

"إنا لله وإنا إليه راجعون."

"رحمك الله أبي وأدخلك فسيح جناته."

دع الايام تفعل ما تشاء

وطب نفسا اذا حكم القضاء

ولا تجزع لنازلة الليالي

فما لحوادث الدنيا بقاء

وكن رجلا على الأهوال جلدا

وشيمتك السماحة والوفاء

الإمام الشافعي

عائنة من متاهة الحياة

ليس من الغريب أن نمرَّ بعقباتٍ ونازلاتٍ يضيق بها صدرنا ويتكدر بها صفو عيشنا على وجه هذه الخليفة.

فلكل بدايةٍ نهاية، فلا شيء ينزل مقام الأبدية والخلود من المخلوقات في هذه الحياة.
وكما يُقال: "دوام الحال من المحال."

فكما أن الليل نهارًا يقابله ويليه، فللحزن فرحٌ يعقبه كذلك،
والعكس صحيح.

من هنا وجب على كل فردٍ منا استيعاب هذه السنة الكونية التي
فُطِرنا عليها، ففي خُضْمِ أوقات اليسر والرخاء قد ينقلب كل شيءٍ في
طرفة عينٍ إلى ما هو عكس ذلك!

صحيحٌ أن المرء لا بد له من التفاؤل بالخير حتى يجده، لكن في
الوقت نفسه وجب عليه أن يقتنع تمام الاقتناع أنه لا شيء دائمٌ دون
قابليةٍ للتغير أو التقلب في هذه الحياة، فهو لا يدري متى أو أين قد
يحلُّ عليه بلاءٌ أو تنزل به مصيبة!

عائز من متاهة الحياة

لكن ما يميز هؤلاء الذين يستطيعون اجتياز ما يحلُّ بهم من مشاكل مستعصية أو عقباتٍ عن أولئك الذين لا يستطيعون لملمة شتاتهم هو تمسكهم بملكة الصبر، ومعرفتهم اليقينية بأن ما لُدَّ وطاب من النعم التي يتمتعون بها ليست بالشيء السَّرْمدي، بل هي مؤقتةٌ قد تزول وتختفي في أي وقتٍ دون سابق إنذار.

ولو كانت غير ذلك لما سميت الدنيا بدار ابتلاءٍ أبدًا، بل لكانت جنةً ينعم فيها الكلُّ ويحظون فيها بحياة الرخاء والبذخ.

فهذا الميزان الكونيُّ الذي يقتضي تواجد المتناقضات واستمراريتها داخل المجتمعات لم يوجد أبدًا عن عبثٍ،

فالحياة يقابلها الموت،

والفرح يقابله الحزن،

والدواء يقابله الداء،

والغنى يقابله الفقر...

عائِد من متاهة الحياة

هذا الميزان ذاته هو الذي يُحتمُّ على كافة الأفراد مسامرة وقائعهم وكل ما يطرأ على حياتهم من متغيراتٍ بطريقةٍ سلسةٍ رغم العناء الذي يكابدونه ورغم المشقّات التي يمرون منها.

فدوام الضراء من المحال، وكذلك الأمر عندما يتعلق بالسرء!

عائز من متاهة الحياة

كن رجلاً صلداً عند الشدائد يا صديقي،
تحلّ بالصبر وامض في حال سبيلك،
قد تنكسر حيناً ولا تجد من يجبر خاطرك!
وقد تسقط حيناً ولا تجد من يمدُّ لك يد العون!
وقد تفقد الأمل أحياناً أخرى ولا تجد من يُهديك ولو بصيصاً منه!
لكن كن على يقينٍ أنه من عزِّ الكبد والسَّقاء،
يولد الفرج والرخاء،
ومن وسط الظلام الدامس،
يولد ذاك البصيص الخافت من النور،
ومن رجم الضعف والمعاناة،
تولد القوة والعظمة،
املاً قلبك واجعله يفيض إيماناً بذلك،
وتذكر دائماً:

"الذي أخرج يونس من بطن الحوت وأغاث يوسف في غياهب الجبِّ
قادرٌ على أن يُغيّر حالك ما بين طرفة عينٍ وانتباهتها!"

٥

توكلوا ولا تتواكلوا

يُروى أن رجلاً أتى النبي -عليه الصَّلَاة والسَّلَام- ومعه ناقته فقال:

"أعقلها وأتوكل أم أتركها وأتوكل؟"

فردَّ عليه نبينا -عليه الصَّلَاة والسَّلَام-:

"اعقلها وتوكل على الله."

عائدة من متاهة الحياة

فيما سبق دليلٌ واضحٌ ورسالة صريحةٌ من رسولنا عليه الصّلاة والسّلام للأخذ دائماً بالأسباب الميسّرة والمشروعة في الوقت نفسه عند التخطيط للقيام بعملٍ ما، ثم بعد ذلك يأتي دور التوكّل على الله عزّ وجلّ.

فلا يمكن للمرء العمل بالأسباب دون التوكّل على الله، كما لا يمكن له أيضاً التوكّل على الله عزّ وجلّ والبقاء مكتوف الأيدي دون القيام بالمسبّبات التي توجب له التوفيق والنجاح في عمله.

فبداية النجاح تتطلب الكثير من البذل والجهد، بالإضافة إلى التخطيط اللازم والكافي، ثم يأتي بعد ذلك دور تحين الفرصة المناسبة للشروع في التطبيق.

فمن أراد المضي في تسلُّق الجبال فلا بد له من أن يتعثّر تارةً، ويسقط تارةً أخرى، لكن لا بد له من الوصول إلى القمة في يومٍ من الأيام إذا ما واصل المحاولة ولم يستسلم لليأس والإحباط.

"خذ بالأسباب وكأنها كل شيء،
وتوكل على الله وكأنَّ الأسباب لا شيء."

محمد راتب النابلسي

عائنة من متاهة الحياة

هذه العلاقة التكاملية بين التوكل على الله والقيام بالأسباب، لا تقتصر فقط على مجالاتٍ معينةٍ في هذه الحياة، بل تشمل جميع مجالاتها.

فطالب العلم لا بد له من سهر الليالي الطّوال إن أراد تحصيل أعلى الدرجات العلمية.

والباحث عن العمل لا بد له من خوض غمار مباريات التوظيف للحصول على وظيفة.

وكذلك الحال بالنسبة لقائم الليل فلا بد له من تحين الثلث الأخير من الليل لينال الكثير من الأجر.

هكذا هي الحياة، فنسبة مردودك ونجاحك رهينةٌ بما تقوم به من أسبابٍ وجهودٍ في سبيل الوصول إلى مبتغاك، ورهينةٌ أيضاً بقدر توكلك على الله عزَّ وجل، لا بقدر تواكلك عليه.

فلو توكلنا على الله كما ينبغي علينا فعله، لرزقنا كما يرزق تلك الطيور التي تغدو خماصاً في أول النهار تبحث عن رزقها، وتروح بطاناً في آخره إلى أعشاشها!

عائِد من متاهة الحياة

فها هي أمُّ "موسى" -عليه السَّلام- تضع ابنها في تابوتٍ وتلقيه في
اليَمِّ وهي تجهل تمامًا وجهه ولدها ومستقرّه.
"لكن ما الذي دفعها لذلك؟"

هي من دون شكِّ تلك الثقة بالله عزَّ وجل التي سكنت قلبها
وجعلتها تتوكل عليه وتوكل له فلذة كبتها وتستأمنه عليه، وهي
موقنَّة تمام اليقين أنه لا خوف على أمانتها مادام المستأمن هو الله.

وها هو "يعقوب" -عليه السَّلام- بعد سنين من الحزن على ولده
"يوسف" -عليه السَّلام-، حتى بلغ به الأمر أن ابيضَّت عيناه وفقد
بصره وهو متوكِّل واثقٌ بربه لا ينتابه شكُّ في ذلك، فلم يخب ظنه
بربه فلاقاه بابنه وهو وزيرٌ من عليَّة القوم بعد أن فارقه وهو طفلٌ
صغير.

وها هو "إبراهيم" -عليه السَّلام- إذ يُلقى به قومه في نارٍ تصل
عنان السماء، وهو يفيض إيمانًا لم يدفعه فقط لتفويض أمره إلى ربه،
بل جعله يأتين حياته ويودعها في حماه، فما كان لله عزَّ وجل إلا أن

عائِد من متاهة الحياة

غير القوانين الكونية فجعل النار التي تحرق الأخضر واليابس بردًا وسلامًا عليه.

هذه الثقة التي إذا ما لبثت أن عَشَّشت في قلب امرئ جعلته من دون شك يتوكل في أموره الصغيرة منها والكبيرة على ربه، فيغدو مطمئن البال، مرتاح النفس، وكأنما قد خلا ذهنه مما كان يؤرِّقه ويشغل باله ويضني عيشه.

فالمتوكل على الله ليس كغيره من الناس، فهو دائمًا في عناية ومشورة ربه، وأموره كلها يُسرُّ وإن كان من بعد عُسر.

عائز من متاهة الحياة

توكل على الله يا صديقي،
ولا تظنن به إلا ظناً حسناً،
قف على بابهِ واطرقها،
ولا تملأ أو تقنط أبداً وأنت واقفٌ عندها!
فربك يحب العبد الملح الصبور،
ولا تحسبن أن ما تطلبه كثيراً!
فربك بيده خزائنٌ لا تنفذ،
فلو علمت ما يُعده ربك لك مما يُسعد قلبك ويزيح عنك الغمة،
لأكثرت من البكاء فرحاً!
فمن أشد رحمةً على الابن من أمه غيره هو!
نحن نخطئ ونتوب ثم نعود،
وهو يتوب علينا كل مرةٍ ويتوب،
وكأن شيئاً لم يكن!
اعمل بالمسببات ثم توكل عليه،
فما خاب من توكل ولم يتواكل!

٦

كن حييًّا ولا تكن خجولا

عائز من متاهة الحياة

أتذكر ذات مرة عندما كنا صغاراً، ونحن نلعب في زقاق حيّنا، إذ
بالكرة ترتطم بإحدى أبواب جيراننا حتى انسمع لصوت الارتطام
دويّ، فإذا برجلٍ يطلُّ علينا من نافذة المنزل ناهراً إيّانا:
"ألا تستحون!"

أتذكر جيداً ذلك الاحمرار الذي علا وجوهنا وكأننا خرجنا للتو من
فرنٍ شديد الاشتعال!
وكيف بدأ أحدنا يرمق الآخر بتلك النظرات التي تخفي وراءها تعجباً
جاء صدمة وهول ما نزل بنا.

وأتذكر أيضاً كيف أننا لم نجد للسؤال جواباً، فما كان لنا إلا أن
أخذنا كرتنا وهبّ كلُّ منا إلى بيته جرياً دون النظر إلى الخلف حتى.

ما يزال وقع تلك الكلمة عليّ حاضراً في ذهني إلى يومنا هذا، بل وما
يزال في جعبتي عدة تساؤلاتٍ لم أجد لها أجوبةً تشفي غليلي لحد
الآن.

"ألا تستحون!"

عائدة من متاهة الحياة

هذه العبارة التي جعلتني أنا ومن معي نفرّ ركضًا إلى منازلنا دون أن ننسب ببنت شفةٍ لندافع عن أنفسنا، أو على الأقل لنبرر ما حدث عسى أن نخفف من حدة الموقف.

هذه الكلمة نفسها هي التي اعتدنا سماعها صغارًا في بيوتنا، وفي المدارس والبقالات وغيرها من الأماكن، دون أن نعيها قدرًا كافيًا من الانتباه يدفعنا للتدقيق في معناها بصفةٍ تجعلنا قادرين على استيعاب جوهرها والمراد منها.

"ألا تستحون!"

عائدة من متاهة الحياة

ذات مرة وجد سيدنا "موسى" -عليه السّلام- فتاتين تريدان السقي لأغنامهما، لكنهما كانتا تمنعانهم من ورود الماء، ولا يلتفت إليهما أحدٌ من الرجال ممن كان يسقي الماء لبهيمة حينها، فتعجب سيدنا "موسى" -عليه السّلام- مما رأى، كون المروءة والفترة السليمة توجب أن يفسح الحاضرون من الرجال المجال للفتاتين لتسقيا غنمهما أولاً!

فلم يهدأ لكليم الله -عليه السّلام- بالٌ إلا بعد أن سألهما عن أمرهما فأطلعتاه على السبب، إنه وبكل بساطة الحياء من مزاحمة الرجال.

فما كان لسيدنا "موسى" إلا أن تكفل بسقاية أغنامهما.

ثم ماذا بعد ذلك؟

عادت إليه إحدى الفتاتين تمشي على استحياءٍ في غير ما تبدّل ولا تبرج، وتأمّلوا معي دقة وصف القرآن لما هي عليه هذه الفتاة:

﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ﴾

القصص، 25

عائدة من متاهة الحياة

وكأنَّ القرآن يحاول أن يخبرنا أن خُلِقَ الحياء قد تمكن وتغلب على طباع وسمات هذه الفتاة، وكما تمكن كذلك من سيدنا "موسى" عليه السَّلام- حين قال لها:

"امشي خلفي، فإن أخطأت الطريق فأشيرى إليه بحجرٍ تلقينه فيه حتى أصحح مساري."

وما ذلك إلا استحياءً من سيدنا "موسى" من أن يمشي خلفها فيخاف أن تقع عينه على عورتها دون قصد.

قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-:

"إن لكل دين خلق، وخلق الإسلام الحياء."

رواه ابن ماجه

عائِد من متاهة الحياة

هذا الحياء الذي جعله رسولنا -عليه الصّلاة والسّلام- خلُقًا مقترنًا بالإسلام هو نفس الحياء الذي غمر فتاتي مدين فمئعهما من مزاحمة الرجال.

وهو نفس الحياء الذي وصف به القرآن مشية إحداهما وقدمها على أنها خصلةٌ ميّزتها وغلبت على طباعها.

وهو ذات الحياء الذي منع "موسى" -عليه السّلام- من المشي خلف فتاةٍ مخافة أن تقع عينه على عورتها.

وأخيرًا، هو نفسه ذاك الحياء الذي دفعني أنا ومن كان معي من الأصدقاء يومها إلى أن نفيّر ركضًا من هول وحمافة ما ارتكبناه.

فالحياء خلقٌ سامٍ وعظيمٌ يرفع من قدر المرء ويُعلي شأنه لدى الآخرين، ويهدّب النّفس ويُلزمها حدّها، ويمنعها من ارتكاب كل ما هو قبيحٌ ويردعها عن الاعتداء على كل ذي حق.

عائز من متاهة الحياة

أما عن الخجل فلا أجد وصفاً دقيقاً له إلا كونه منبوذاً، فالخجل عبارة عن عواطف أو مشاعر جياشة تسيطر على الشخص وتدفعه للظن أنه ممتلئ بالعيوب، وأنه منبوذ ممن حوله، أي من أفراد عائلته وأصدقائه خاصةً، ومن معارفه وباقي أفراد المجتمع عامةً.

فالإنسان الخجول بطبعه غير قادرٍ على تطوير شخصيته كونه لا يستطيع التقارب مع الآخرين والتأقلم معهم بكل بساطة.

فهو يولد عند صاحبه شعوراً بأنه غير قادر على النجاح، وأن الفشل هو مصير كل إنجازٍ يحاول تحقيقه، فالخجل يهيم الجانب النفسي بالدرجة الأولى.

ومن أبرز أسباب تكونه لدى الفرد هي نوعية البيئة والمحيط الذي نشأ وتربى فيه، فالطفل الذي ينشأ وسط مجموعةٍ من أقرانه يكون أقل عرضةً للوقوع ضحية الخجل مستقبلاً، عكس الطفل الذي تكون نشأته منعزلةً عمّن حوله، بحيث يكون احتمال معاناته من الخجل في قادم حياته جدُّ مرتفع، ويمكن أن يتطور إلى ما يدعى

عائدة من متاهة الحياة

بالرهاب الاجتماعي، والذي هو حالةٌ تعترى خلالها الشخص رغبةً جامحةً في الانعزال التام عن محيطه أو مجتمعه نتيجة عدم القدرة على الاندماج.

ومن أبرز الطرق الفعالة لتفادي وقوع الطفل في دائرة الخجل هي تشجيعه منذ صغره على الاندماج والتواصل مع الآخرين، ومحاولة بناء علاقاتٍ معهم، بالإضافة إلى محاولة منحه الثقة في اتخاذ القرارات وعدم إجباره على فعل شيءٍ هو لا يريده أو لا يفتنح به.

وكنصيحةً للآباء والأمهات:

**ربُّوا أبناءكم على الحياء وجنبوهم الخجل،
فالحياء محمودٌ، عكس الخجل الذي هو منبوذ.**

٧

لا تحکم علی الناس من مظاهرهم

عائز من متاهة الحياة

مازلت أتذكر وجه تلك السيدة التي كانت تبيع المناديل الورقية في محطة القطار، التقت بي وأنا نازلٌ من سيارة الأجرة، طلبت مني شراء بعضٍ من تلك المناديل التي تحملها بكتنا يديها.

في بادئ الأمر، ولأني كنت مسرعًا خشية أن يفوتني القطار الذي سيأخذني إلى وجهتي، أعطيتها ما كان معي من البقشيش الذي تبقى لي وأكملت طريقي مسرعًا، فإذا بي أسمع نداءً خافتًا من ورائي:

"تعال يا بني،"

"يا بني، تريت قليلًا...!"

استدرت فوجدت تلك السيدة تمشي مسرعة الخطى نحوي، أقدمت وكلي فضولٌ لمعرفة السبب الذي جعلها تنادي بي. خاطبتني بلهجةٍ منكسرةٍ تخبرك أن مشقات وضغوط الحياة قد نالت قسطًا وافرًا من صحتها:

"يا بني، إني لا آخذ مالا إلا بعرق جبيني، فهاك خذ ما أعطيتني مالا

مناديلًا."

عائدة من متاهة الحياة

اعتلت وجهي ابتسامه عريضة ثم سارعت بأخذ بعض من تلك
المناديل وشكرتها ثم أكملت طريقي.
أدخلني تصرف تلك السيدة في حيرةٍ واندھاشٍ طوال رحلتي، ظللت
طوال الطريق أردد في نفسي:

"ما الذي دفع تلك السيدة لفعل ذلك يا ترى؟"

"أما كان من الأفضل لها أن تجني بعضًا من المال من دون مقابل؟"

ظللت أفكر مدةً من الزمن ثم تذكّرت قوله عزّ وجل:

﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ

الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا

يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِحْفَافًا ﴿٢٧٣﴾

البقرة، 273

فأدركت أن دافعها كان ما بداخلها من كرامةٍ وأنفةٍ وعزة نفس،
فمثل هؤلاء الناس لا يعرفون سبيلاً لكسب قوت يومهم إلا عن طريق
عرق جبينهم، وما تجني أيديهم من دراهم ودنانير حلالاً، بعيداً كل
البعد عن كل ما هو حرامٌ تشمئز نفوسهم منه.

عائذ من متاهة الحياة

فالنفوس الطيبة لا ترضى إلا بما هو طيب، كالشجرة التي تُسقى
بالماء الطيب النقي، فتزهر وتثمر ولا يكون عطاؤها إلا طيبًا، عكس
الشجرة التي يكون سقاؤها خبيثًا فلا تؤتي إلا خبيثًا.

غمرني الفرح كثيرًا لأنني التقيت بهذه السيدة وأخذت منها درسًا في
الحياة، مع العلم أن ما كان في نيتي هو أخذ المناديل مقابل المال إلا
أني كنت على عجلةٍ من أمري.

كان "أينشتاين" لا يستغني أبدًا عن نظارته،
وذهب ذات مرة إلى أحد المطاعم،
فاكتشف هناك أن نظارته ليست بحوزته!
فلما أتاه النادل بقائمة الطعام ليقراها ويختار منها ما يريد،
طلب منه "أينشتاين" أن يقرأها له، فاعتذر النادل قائلاً:
"إنني آسفٌ يا سيدي، فأنا أميٌّ جاهلٌ مثلك!"

قيل إن رجلاً جاء إلى "سقراط" يتبخر في مشيته ويتباهى بجمال
هيئته وأناقة مظهره، فقال له "سقراط":
"تكلم حتى أراك!"

"لا تحكم على الكتاب من غلافه"

لا يخفى عليكم أننا نعيش في عالمٍ يحكم على الناس من خلال مظاهرهم الخارجية، بل ويعتبرها الفيصل في طريقة التعامل معهم.

فذاك الذي يرتدي ملابس فاخرةً تواكب آخر صيحات الموضة ويضع أغلى الساعات والنظارات، لا يُعد كغيره ممن يرتدي ملابس رثةً وقديمة.

وذاك الذي يسوق سيارةً فخمةً ليس كغيره ممن يركب سيارةً قديمة الطراز تكاد لا تبرح مكانها.

وذاك الذي يعمل كمديرٍ أو موظفٍ في شركةٍ ما، لا يُقَابَل بنفس النظرة التي يُقَابَل بها غيره ممن يعمل في مهن متواضعة.

هذه الحثثيات بمجملها جعلت مجتمعاتنا لا تأخذ بعين الاعتبار إلا المظاهر الخارجية للأفراد، فأصبح الفرد يعير هذا المظهر أكثر مما ينبغي له، فيُجحف نفسه ويبدل ما لا يقدر عليه من أجل إرضاء نظرة المجتمع تجاهه.

عائز من متاهة الحياة

فقيمة الفرد عند البعض تنحصر فيما يرتدي من ملابس ويضع من ساعاتٍ وأكسسواراتٍ، وفيما يمتلك من عقاراتٍ وسياراتٍ وغيرها.

فتجد غالبيتنا يتكف عناء شراء أغلى السيارات والملابس وإن كان لزامًا عليه اقتراض المال من أجل ذلك، في حين تجد أنه من باب أولى أن يستثمر ذلك المال فيما سيجني به قوت يومه ويُعيل به نفسه وأفراد عائلته مستقبلاً.

فما نستطيع أن نراه بواسطة أعيننا المجردة عن الآخرين هو مظهرهم الخارجي المكشوف للعيان فقط، لكننا لا نستطيع التعمق بداخلهم، ذلك أن جوهر المرء ونواياه لا يعلم بها إلا الله عزَّ وجل.

ولو كان باستطاعتنا فعل ذلك لهانت معرفة ما يُضمرة الآخرون ولباعت معظم العلاقات بالفشل قبل بدايتها.

فذاك الذي يعطي أحكامًا مسبقةً عن الآخرين اعتمادًا فقط على ما يراه ويسمعه عنهم من أقاويل لا يدري صحتها من عدمها، تجده

عائدة من متاهة الحياة

يجهل تمام الجهل ما يُكُنُّه هؤلاء في سريرتهم وما يضمرونه في أنفسهم.

فكم من شخصٍ قوبل بازدراءٍ وسوء معاملةٍ بسبب ما يرتديه من ملابس بالية، لكن في الحقيقة تجده من أحسن الناس أخلاقًا وأدبًا وتعاملًا مع الناس!

بينما في الجهة الأخرى، تجد من الناس من مظهره يجذب العيون وينمُّ عن الغنى، ومن لباقة لسانه تدل على رقي أفكاره، لكن تجده في نفس الوقت عنوانًا للخبث والجرم والاحتتيال!

بل وصار الأمر لا يقتصر على ذلك فقط، فأصبح أول ما يُسأل عنه الزوج المستقبلي هو مقدار ما يمتلكه في حسابه البنكي، وكم من المال يتقاضى شهريًا، وكم في ملكيته من منازل وسياراتٍ تشفع له بنيل ما يريد.

عائدة من متاهة الحياة

فأصبح الحكم على الآخرين من خلال "أغلفتهم" إن صحَّ التعبير، نظامًا مُهيمًا، وأصبح من يخالف ذلك ويعتمد على الفطرة السليمة هو المخطئ الذي خالف الصواب.

لا يختلف عاقلان على أن الوجاهة وحسن المظهر ولباقة اللسان تشرح للناس قلوبهم تجاه الآخرين، لكن الواقع ليس دائمًا كما يبدو عليه، فكم من محتالٍ يتخفى وراء تلك المحاسن ويتقنص اللحظة المناسبة للانقضاض على ضحيته، وكم من صديقٍ مقربٍ يُسمعك حلو الكلام والمعسول منه، لكنه يخفي في قلبه من الحقد والضغينة ما لا يعلمه إلا الله.

وكم من شخصٍ قليل الكلام ونادر التبسم وكثير الانعزال، قد يحكم عليه الناس بالعجرفة والغرور، في حين تجده من أحسن الناس مبادئًا وأخلاقًا، بل وقد تجده مثلاً يُحتذى به في ذلك عند أقرانه.

فالحكم المسبق والمجرد على الآخرين والذي يقتصر فقط على مظاهرهم الخارجية دون التطرق إلى جوهرهم الداخلي وما يكتنونه من أفكارٍ ومعارفٍ هو ضربٌ من ضروب الظلم في حقهم، ولا يدلُّ إلا

عائدة من متاهة الحياة

على جهل مرتكبه وقصور نظره على الظاهر من الأمور دون الإلمام
بجوهرها وما خفي وراءها.

۸

کن طموحا

عائز من متاهة الحياة

يُحكى أن طفلاً كان يعاني في صغره من تأخرٍ في النطق، كما صاحبه كذلك عسرٌ في القراءة.

هذا الطفل نفسه لم يسلم من ضعفٍ في ملكة الحفظ لديه، فقد كان معروفاً بين أقرانه بشدة نسيانه، حتى بلغ الأمر في إحدى المرات أن كتب أحد أساتذته في سجله الدراسي:

"تلميذٌ لا يصلح لشيء!"

فقد كان هذا الطفل متسماً في مدرسته بالاستيعاب البطيء، وشروذ الذهن والانعزال، والمشاكسة وعدم قبول النظام الداخلي للمؤسسة، إضافةً إلى الغياب المتكرر وغير المبرر.

عندما بلغ هذا الطفل سن السادسة عشرة، تقدّم للتسجيل في إحدى أعرق الجامعات بمدينة زيورخ السويسرية، فرسب في جميع الاختبارات لهذه الجامعة.

تقدم بعد سنواتٍ من تمكنه من ولوج الدراسات الجامعية للحصول على شهادة الدكتوراه، فقبول بالرفض خمس مراتٍ حتى

عائدة من متاهة الحياة

تمكّن من نيلها في المرة السادسة بشقّ الأنفس.

تمكّن هذا الطالب نفسه بعد حصوله على شهادة الدكتوراه من أن يصبح أستاذًا جامعيًا ودرّس في عدة جامعاتٍ من ضمنها جامعة زيورخ، نفسها تلك الجامعة التي رفضته في بداياته. ثم تمكن بعدها من نيل عدة مناصب من أبرزها مدير المعهد الفيزيائي ببرلين.

لم يقف الأمر هنا فقط، بل استطاع بعدها نيل جائزة نوبل للفيزياء سنة 1921م، كما أسس نظرية النسبية والتي تُعدّ واحدةً من إحدى أعظم النظريات التي عرفها علم الفيزياء.

كان وما يزال يُعد أيقونةً ورمزًا للذكاء والعبقريّة الفدّة، يُضرب به المثل في النبوغ في جميع المجالات.

إنه من دون شكّ الفيزيائي والرياضي الشهير "ألبرت أينشتاين".

"الآمال العظيمة تصنع الأشخاص العظماء."

توماس أديسون

عائدة من متاهة الحياة

أولئك الذين نسمع عن حياتهم الحافلة بالإنجازات التي لم يسبقها إليهم أحد، لم تكن طريقهم مفروشةً بالورود كما كنا نظن، بل على العكس من ذلك، كان دربهم شائكاً غير مُمهّدٍ يعجُّ بالعقبات والعراقيل.

لكن ما الذي ميّزهم عن غيرهم ممن فشلوا في الوصول إلى ما أرادوا إليه؟ وما الملكة التي حازوا عليها حتى شفعت لهم بالتميز عن الآخرين ممن استسلموا يا ترى؟

إنه الطموح من دون شك!

ذلك الطموح الذي يدفعهم للاستيقاظ باكراً كل صباح للذهاب إلى المدرسة وترك أسرّتهم الدافئة.

ذلك الطموح الذي يجعلهم يقضون الليالي ساهرين بقلمٍ في أيديهم وكتابٍ نُصب أعينهم وشمعةٍ أو مصباحٍ ينير غرفهم. ذلك الطموح الذي يدفعهم إلى تحصيل أعلى الدرجات في الامتحانات بغية ولوج أرقى الجامعات.

عائز من متأهة لآياة

ذلك الطموح الذي يجعلهم كذلك متعطشين لتحقيق المزيد من المكتسبات والإنجازات.

حاول وإن قوبلت بالإخفاق، فأعد المحاولة وإياك واليأس!
حاول ثم حاول، ثم أعد المحاولة، وحاول مجددًا إلى أن تحقق هدفك.

الفشل هو بداية النهاية، وانظر للأمور من زاوية مغايرة عن الآخرين، فلا تعتبر محاولتك التي باءت بالفشل إخفاقًا، بل اعتبرها فقط طريقًا لا يمكنها أن تقودك إلى مبتغاك!

عندما سُئل "توماس أديسون" عن فشله عدة مراتٍ خلال محاولته
اختراع المصباح، ردَّ قائلاً:
"أنا لم أفسل، بل وجدت عشرات الطرق التي لا يمكن
للمصباح العمل بها!"

عائدة من متاهة الحياة

لا تقل فشلت، بل أنت فقط لم تنجح!

هنا يكمن السر الذي يصنع الفارق بين أولئك الذين رفعوا الراية البيضاء وبين أولئك الذين لا يعرف قاموسهم معنى للاستسلام.

هؤلاء الذين نالوا أعلى المراتب والمقامات، بل وحازوا على أعرق الجوائز تقديرًا واعترافًا لما بذلوه من جهودٍ وما وصلوا إليه من إنجازاتٍ واستحقاقات، هؤلاء لم يعلموا يومًا أنهم سينالون ما في مناهم وأن جهودهم ستعطي ثمارها، هم كانوا فقط يحاولون، يحاولون رغم ما يواجههم من عقباتٍ ومشاكل تبطئ تقدمهم حينًا وتجعلهم يتعثرون أحيانًا أخرى.

لكنّ أهم ما ميّزهم عن غيرهم هو أنهم لم يؤمنوا يومًا بأنهم فشلوا، لأنهم حقًا لم يفشلوا، هم فقط قاموا بمحاولةٍ لكنها لم تنجح!

على قدرِ أهلِ العزمِ تأتي العزائمُ

وتأتي على قدرِ الكرامِ المكارمُ

وتعظمُ في عينِ الصغيرِ صغارُها

وتصغرُ في عينِ العظيمِ العظائمُ

أبو الطيب المتنبي

عائدة من متاهة الحياة

كن قنوعًا، لكن في الوقت نفسه كن طموحًا!

فالقناعة ليست هي ذلك المفهوم المجرد الذي يتبناه غالبية الناس والذي يقتصر على الرضا بالرزق الحاضر والزهد في الغائب منه، دون القيام بأدنى مجهودٍ بغية نيل ما يطمح إليه المرء في حياته من إنجازاتٍ وغيرها، بل على العكس من ذلك كله.

لابد للقناعة من أن يرافقها طموحٌ يتمثل في بذل الأسباب والاجتهاد للبحث عما هو مفقودٌ مع الرضا عما هو موجود، فعلى المرء أن يسعى للخير جهده، لكن تحقيق مراده ليس بالضرورة عليه.

فإذا كانت القناعة صمّام أمانٍ للإنسان في طريق ارتقائه سلم المجد والمعالي، فالطموح هو المحرك الأساسي له، ودونه لن يستطيع أن يبرح مكانه أو أن يمضي للأمام.

فالإنسان المتّزن هو الذي يعرف كيف يجمع بين القناعة والطموح، ويعرف كيف يكون قنوعًا وطموحًا في الوقت نفسه، أما إذا كان غير ذلك، فمما لا شكّ فيه أن حياته ستتحول إلى جحيمٍ ونكدٍ لأنه لا يدري بكيفية الأخذ بالأسباب التي توصله إلى طريق النجاح،

عائدة من متاهة الحياة

وسيصبح بذلك إنساناً يحيطه الخور والكسل من جميع جوانبه،
فيصير بذلك جشعاً وغير راضٍ وغير قنوعٍ بما عنده، وقد يصل به
الأمر إلى ابتزاز الآخرين للحصول على ما عندهم أو استعمال غير ذلك
من الأساليب اللامشروعة.

"انظر لمن دونك لترضى، وانظر لمن فوقك لتسعى."

أحمد الشقيري

٩

اقراء

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾

العلق، 1

"اقرأ!"

لم يكن نزول هذه الكلمة التي افتُتِح بها القرآن عند بداية تنزله عبثاً، ولم يكن نزول أمين الوحي "جبريل" -عليه السّلام- على رسولنا عليه الصّلاة والسّلام بهذا الأمر والتكليف دونما أن يكون هناك قصدٌ أو عدة مقاصد من وراء ذلك.

ف "اقرأ" هي أول كلمةٍ نزلت من الوحي الكريم، وأول آيةٍ، وأول أمرٍ، وأول تكليفٍ قبلما أي تكليف.

وكأن القرآن يريد من وراء ذلك أن يُرسِّخ فينا الأساس المتين لدستور الحياة، والمفتاح القويم لجميع معضلاتها، وذلك من خلال أول آيةٍ نزلت من الرسالة الخاتمة، وفي أول سورةٍ نزلت منها "سورة العلق".

هذه السُّورة المكيّة التي كانت بالنسبة لمعظمنا أول سورةٍ نحفظها، سواءً في المدارس أو في الكتاتيب التي اعتدنا الذهاب إليها ونحن صغار، أو حتى في بيوتنا مع والدينا وأفراد عائلتنا.

عائذ من متاهة الحياة

هذه السورة التي لطالما فاحت آياتها بعبقٍ يُنعش الحواس،
فيجعل النفس تواقَّةً ومتلهفَةً للقراءة والمطالعة واغتراف المزيد من
بحار المعرفة والعلوم.

فما بين كلمةٍ وأخرى، تجد ذاك النسيم الذي يغدِّي الروح ويسقي
الفؤاد، وما بين آيةٍ وأخرى يلفت بصرك ذاك البصيص الخافت من
النور الذي ينجي النفس من غياهب الجهل، ويدفعها للقراءة والاعتناء
بكنوز العلم والمعرفة.

"وفي ذلك فليتنافس المتنافسون!"

أتذكر ونحن صغارٌ في المدرسة، عندما كانت تطلب منا معلمتنا قراءة نصٍّ على مسمعٍ من القسم، فكنا نتهافت ونتسابق لرفع أيدينا عسى أن يكون كلُّ منا هو المختار، فهذا يكتفي برفع أصبعه فقط، وذاك يتجاوز ذلك إلى ندائه:

"أستاذة... أستاذة!"

والآخر يفوق ذلك كله إلى حدِّ القيام من مكانه ليلفت نظر معلمته، ثم يبدأ أحدنا بالقراءة، فيتلعثم تارةً، ويخطئ نطق الكلمة تارةً أخرى، فنصح له خطأه دون الحاجة لتدخل المعلمة.

كنا نعتبر تلك المنزلة التي ينالها التلميذ بقراءته خلال الحصّة شرفاً يعلو به عن باقي أقرانه الذين لم يحالفهم الحظ في نيل نفس الفرصة، فتجدنا نتباهى ونفاخر بعد انتهائنا ونسأل عن يميننا وعن شمالنا:

"كيف أبليت؟... هل أبليت حسنًا؟"

"هل كان نطقي للكلمات سليمًا؟"

"كم ارتكبت من خطأ يا ترى؟"

ثم ترد المعلمة قائلَةً:

"أحسنْتَ يا ولدي."

لا داعي لوصف الشعور الذي كان ينتابنا عندما كنا ننال استحسان معلمتنا، فلقد كان ذلك بالنسبة لنا كنيل شهادة التخرج أو اختتام الشواهد الجامعية، فتجد باقي تلاميذ القسم يرمقون زميلهم الذي نال ذاك الاستحسان بنظراتٍ تفيض إعجابًا وغيرَةً في الوقت نفسه، فتشدد التنافسية داخل القسم وخارجه أيضًا!
أئنا يكون الأفضل!

حتى بعد عودتنا إلى بيوتنا، لا مفر من أن نُطلع والدينا عن ما نلناه من مكانةٍ عند معلمتنا، فأول ما نفتتح به الكلام بعد السلام، هو إطلاع آبائنا وأمهاتنا عما جرى معنا في المدرسة، وكيف أننا لقينا إطرًا من طرف معلمينا، فيكافئونا حينًا ببعض الدنانير التي عادةً ما ندّخرها حتى يحين وقت إنفاقها فيما اشتهدت أنفسنا، وأحيانًا أخرى ببعض قطع الحلوى اللذيذة.

يقول أحد الفلاسفة:

"الكتب سعادة الحضارة، بدونها يصمت التاريخ ويخرس
الأدب ويتوقف العلم ويتجمد الفكر والتأمل."

عائِد من متاهة الحياة

فالكتاب من دون شكّ هو حلقة الوصل بين الماضي والحاضر،
فيكفيها فخراً أن نحوز شرف الاطلاع وقراءة ما خيط وُنسج من علومٍ
ونظرياتٍ وأفكارٍ على أيدي علماء ومفكرين وأدباء في القرون السّابقة،
وننال أيضاً فرصة تمريره للأجيال القادمة.

ولا أخفيكم سرّاً أنه كثيراً ما ينتابني الحنين إلى تلك الجلسة
الحميميّة التي أعقدها أمام مدفئةٍ، مع كتابٍ من خيرة الكتب التي
أحبها، وفنجان قهوةٍ ساخنٍ على الطاولة، خلال جوٍّ ممطرٍ باردٍ لا
تجد فيه الدفء إلا بين أحضان كتابك وبين طيّات أوراقه.

فالكتاب ليس فقط عبارة عن ورقٍ وحبٍ، بل هو أكثر من ذلك
بكثير!

الكتاب هو ذاك الصديق الذي يظلُّ بجانبك حين يغادر جميع
أصدقائك.

هو ذاك الحبل الذي تتمسك به فيفودك من غياهب الظلمات إلى
أنوار العلم والمعرفة.

هو ذاك العطر الفواح الزكي الذي إن لم يعطّر ريحك، أنعش أنوف من
حولك.

عائدة من متاهة الحياة

هو ذاك القارب الذي يجوب بك البحار شرقًا وغربًا، شمالًا وجنوبًا،
دون أن تملّ منه أو تكلّ.
هو ذاك الخِلُّ الوفيُّ الذي لا يخون أبدًا، بل يحتضنك ويأخذ بيدك في
الضراء والسرّاء.
دائمًا احتضن الكتاب الذي ينال إعجابك، نم وهو على صدرك،
تنفس صفحاته وأدخله روحك من أوسع أبوابها.

أَعَزُّ مَكَانٍ فِي الدُّنْيَا سَرَجٌ سَابِحٌ

وَحَيْرٌ جَلِيسٌ فِي الزَّمَانِ كِتَابٌ

أبو الطيب المتنبي

عائدة من متاهة الحياة

لا تبخلوا على أنفسكم وتحرموها لذّة ومنتعة القراءة، فالقراءة دون
مبالغة هي كنزٌ من كنوز الدنيا.

القراءة هي تلك الملكة التي تمنحنا مكاناً آخر نساfer إليه ونتجول فيه
ونتأمله كما اضطررنا للبقاء في أماكننا.

القراءة هي فن الفضول المشروع والتطفل على أفكار الآخرين بأدبٍ
جمّاً عن طريق الكتب.

هي ذلك الجسر الذي ينقلنا من البؤس إلى الأمل، ومن الكآبة إلى
السعادة، ومن الثرى إلى الثريا.

هي من أعظم الهبات التي قد ينالها المرء في حياته، هي تلك النافذة
التي تسمح للنور بولوج العقل.

هي ذلك البصيص من الضوء الذي يخطف أبصارنا في آخر نفقٍ مظلمٍ
نليج من خلاله إلى عالمٍ خالٍ من المشكلات والمشقات.

القراءة هي أن تذهب بعقلك ومشاعرك خارج حدود الزمان والمكان!

"القراءة بكل بساطةٍ هي نبعٌ من ينابيع الحياة."

١٠

إن مع العسر يسرا

عائز من متاهة الحياة

كان نبيُّ الله "أيوب" -عليه السَّلام- رجلًا كثير المال ويمتلك الكثير من الأراضي الواسعة والعبيد والأنعام، وكان له العديد من الأبناء، فابتلاه الله عزَّ وجل في جسده بأمراضٍ عديدةٍ لم يسلم منها سوى قلبه ولسانه، فكان صابِرًا محتسبًا شاكرًا ذاكرًا لله في كل وقت.

طال الرِّمَن بمرضه عليه السَّلام حتى قاطعه الناس ولم تَجِنَّ عليه سوى زوجته، فكانت تعينه على قضاء حوائجه.

خسر "أيوب" -عليه السَّلام- ماله وممتلكاته، ومات أولاده واحدًا تلو الآخر وهو صابِرٌ محتسب الأجر عند الله، حتى اضطرت زوجته أن تخرج للعمل من أجل تحصيل لقمة العيش.

اضطرت زوجته ذات يومٍ لقصِّ إحدى ضفيريها وبيعها مقابل طعامٍ طيبٍ كثير، فلما أتت به سيدنا "أيوب" عليه السَّلام سألتها:

"من أين لك هذا؟"

فقالت: "خدمت به أناسًا."

عائدة من متاهة الحياة

وبعد مدّةٍ من الزمن اضطرتّ للمرة الثانية أن تتبع الضفيرة الأخرى، ولما أتت له بالطعام أقسم ألا يأكل حتى تخبره من أين جاءت به.

فكشفت زوجته عن خمارها، فلما رأى رأسها مخلوقه؛ تألم واشتدّ كربه، وقال:

"ربّ إني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين."

استجاب الله دعاء نبيه "أيوب" وكشف عنه ضره، ففي إحدى الأيام إذ بزوجته عليه السّلام تذهب خارجًا لقضاء بعض الأغراض، فإذ بربنا عزّ وجل يوحى إليه أن اضرب برجلك الأرض يخرج منها ماءً بارد، فاغتسل منه واشرب تبراً ممّا أصابك من كافة الأمراض، ففعل "أيوب" ذلك فسرعان ما استردّ صحته وعافيته بأحسن حال.

عادت زوجته إلى البيت فلما رأته أنكرته ولم تعرفه، فسألته عن "أيوب" وقالت:

"أي بارك الله فيك! هل رأيت نبي الله هذا المبتلى؟ فوالله ما رأيت رجلاً أشبه به منك إذ كان صحيحاً!"

فرد عليه السّلام قائلاً:

"فإني أنا هو!"

أتم الله نعمه على نبيه فأصلح له حال زوجته، ورد لها جمالها وشبابها، فحملت وولدت، ورزقهما الله مثل أولادهم الذين فقدوهم فيما مضى، وأعطاه الله مثلهم معهم، كما رزق الله "أيوب" رزقاً وفيراً من المال والمزارع وما لُدّ وطاب من خيرات الدنيا ونعيمها.

﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾

الشرح، 5-6

لم ترد كلمة "العسر" معرّفَةً في كلتا الآيتين في حين وردت كلمة "اليسر" نكرةً من فراغ.

لطالما كان القرآن الكريم بجمال آياته مدعاةً للتأمل والتدبر، فكم مررنا على عدة مواضع مرور الكرام، في حين كان يتطلب الأمر منا الكثير من الخشوع والتركيز في التدبر والتعمق في فهم المعنى المراد تمريره والغاية من ذلك.

فإذا كان كل عسرٍ يقابله يسران، فمن دون شكٍّ لم ولن يغلب العسر اليسر أبدًا.

هذه الرسالة الإلهية المتضمنة في هذه الآية الكريمة هي جبرٌ للخواطر المكسورة والنفوس التي ضاقت بها الأرض بما رحبت في هذه الدنيا، حتى أصبح العيش في نظرهم نكدًا لا يعرفون حلوه من مرّة.

عائز من متاهة الحياة

هذه الرسالة التي تتسلل للقلوب دون استئذانٍ فتُلقي فيها من
الطمأنينة ما يكفي ومن السكينة ما يشفي.
هذه الرسالة التي تخبرك بأسلوبٍ سلسٍ وناعمٍ:

"لا تقلق فالذي بيده العسر، بيده أيضًا يسرٌ كثير."

"الصبر مفتاح الفرج"

تحمّل يا صديقي،
فإن مع كل عسرٍ يسرٌ كثير،
فالذي استجاب دعوة أيوب وكشف غمّه ومرضه،
واستجاب دعوة يونس وأنقذه من أعماق الحوت،
واستجاب دعوة يعقوب وأعاد إليه يوسف بعد فراقٍ طويلٍ،
واستجاب دعوة زكريا ورزقه ذريةً تقرُّ عينه بها،
لقادرٌ على أن يستجيب لك ويعطيك ما في نيتك،
هي مسألة وقتٍ فقط!
قد لا يكون ذلك اليوم، ولا غدًا، ولا بعد غد،
لكنها ستأتي من دون شك!
مادام قلبك يؤمن بذلك!
سيأتي يومٌ تذرّف فيه دموع الفرح فتسيل على خديك،
وتبلل الثرى تحت قدميك،
نعم سيأتي،
كن على يقينٍ بذلك!
فصبر "أيوب" لا بد من أن تليه فرحة "يعقوب"!

"فصبرٌ جميل"

قد تسقط مريضًا طريح الفراش يومًا من الأيام، وقد لا تستطيع حتى أن تفارق مضجعك.

قد يهجركَ أصدقاؤك إلا القليل منهم ممن يساندونك ويربتون على كتفيك.

قد تقع في مشكلاتٍ عويصةٍ في حياتك الشخصية، فتكدر عيشك وتجعله جحيمًا لدرجة أنك قد لا تجد منفذًا منها إلا عن طريق أفكار جنونيةٍ قد تودي بصحتك وحياتك.

قد تتخرج من أعرق الجامعات، وتنال أفضل الشهادات بعد سنواتٍ من الجد والعمل الشاق التي ضحيت فيها بالغالي والنفيس لتصير ما أنت عليه، وقد تكون أوديت خلالها بشيءٍ من صحتك، ثم لا تجد عملاً تسد به حتى رمقك.

قد يتعذر عليك النجاح في بناء عائلةٍ كباقي أقرانك، أو قد تفضل في إنشاء مشروعك الخاص خلاف من نجح في ذلك من معارفك.

عائدة من متاهة الحياة

لكن كن صبورًا دائمًا، وتشبع بملكة الصبر التي إن أوتيتها فقد
أوتيت الخير كله.

دعه يتغلغل بداخلك وينفذ إلى أعماقك ويداعب حواسك، وتأكد
دائمًا أن ربك لن يخيب آمالك وطموحاتك.

۱۱

کن صباحیّا

عائز من متاهة الحياة

مازلت أتذكر تلك الأيام التي كنا نجتاز فيها الامتحانات الجامعية،
كانت تلك الفترة بدون مبالغٍ إحدى أصعب الفترات التي كنا نمُرُّ بها
في حياتنا الدراسية.

كان يضيق بنا ذرعًا ما نواجهه كل يومٍ من عوائقٍ ومشقاتٍ خلال
التدريبات الميدانية، بالإضافة إلى ما ينتظرنا من أكوامٍ من الدروس
المتراكمة والتي نخالها جبالًا أو ناطحات سحابٍ لو نظرنا إليها.

كنا لا نجد الوقت الكافي طيلة النهار من أجل التحضير اللازم، كان
الإنهاك والتعب ينال منا فنسقط طريحي الفراش أول ما نعود إلى
غرفنا في السكن الجامعي.

كان الأمر أشبه ما يكون بكابوسي مزعجٍ يورِّقنا طيلة تلك الفترة،
ولا نجد سبيلًا لتفاديه أو الهروب منه، إذ كان لزامًا على كل واحدٍ منا
أن يواجه أمر واقعته بكل بسالة.

كنا نشدُّ هممنا ونبذل قصارى جهدنا، فكنا لا ننام إلا ساعاتٍ
قليلةٍ ونستيقظ قبل آذان الفجر، فنحزم كتبنا وأقلامنا وننطلق إلى

عائدة من متاهة الحياة

مكتبة حيّنا الطّلابي، فنجدها خاليةً يعمّها سكونٌ يلفت انتباهك في ذلك الوقت!

وكأنه يخاطبك قائلاً:

"هَلِّمْ يا طالب المعالي!"

كانت تلك الساعات التي نقضيها في الصّباح الباكر من خير الأوقات التي اعتدنا الدراسة فيها، رغم مشقة النهوض وترك الفراش الدافئ الذي ما يلبث يغرّينا بقضاء مزيدٍ من الوقت في أحضانه.

كانت عقولنا وأجسادنا نشيطةً أيما نشاطٍ في ذلك الوقت، فكنا نفهم دروسنا ونستوعب معلوماتنا بليونّةٍ وسلاسةٍ ما بعدها سلاسة، عكس بقية الفترات من اليوم، حيث كنا نصادف صعوبةً ومشقةً في التركيز، فكنا لا ندرس إلا بشقّ الأنفس.

كان ما يميّز تلك الفترة الصباحية هو ذلك الهدوء الذي يعمّ الأجواء ويجلب معه الطمأنينة والسكينة، فلا ضجيج سياراتٍ أو مصانعٍ أو معاملٍ كفيلاً بأن يزعجك أو يُذهب تركيزك.

عائِد من متاهة الحياة

كان ذلك الهواء العليل الخالي من أي شكلٍ من أشكال التلوث
حينها يُنعش حواسي فيُذهب عني ما تبقى من الرغبة في النوم، ويُحفِّز
فيّ الشَّوق والعزيمة للدراسة.

كنا نجتاز امتحاناتنا بنجاحٍ وقلِّمًا يرسب أحدنا في إحداها، بل وكنا
لا نجد بديلاً من الاستمتاع بالدراسة في ذلك الوقت من اليوم
خصيصاً.

فكانت كما حلَّت بنا ضائقةٌ لا نجد وقتاً للتفرغ لها إلا ولجاناً لتلك
السُّويعات التي أَلفنا العمل فيها!

"ساعاتُ الصَّباحِ تمتلِكُ الذهبَ في فمها."

مثل ألماني

عائذ من متاهة الحياة

ليس من الخفي أن العمل الجاد وعدم التكاثر في الوقت نفسه من أسرار نجاح المرء في بلوغ مناه وتحقيق أهدافه على المدى القريب والبعيد.

هذه المجهودات التي يبذلها المرء باستمرار لا تأتي من فراغ، بل لها ظروفٌ ومسبباتٌ بل وأسراً يعمل بها حتى يتسنى له إكمال ما بدأه دون تراجعٍ أو استسلام.

لابد أن نتفق على أن الاستيقاظ باكراً يمثل واحدًا من أبرز هذه الأسرار التي تعطي للفرد دفعةً في حياته سواءً الشخصية منها أو العملية.

تلك الساعات الباكورة في أول النهار هي الفيصل بين هؤلاء الذين تجدهم متزّنين فيما يقومون به في حياتهم، فتجدهم يسرون على خطى ثابتةٍ نحو ما يطمحون إليه من أهدافٍ وإنجازاتٍ في شتى المجالات.

وبين أولئك الذين يظلون مستلقين على أسرتهِم إلى غاية أوقات متأخرةٍ من النهار، فينهضون وكلهم خمولٌ وكسل، حتى أنهم لا

عائنة من متاهة الحياة

يجدون أدنى رغبةٍ في فعل أي شيءٍ سوى أخذ قسطٍ آخر من الراحة
أو العودة للاستلقاء.

فلاستيقاظ في الصباح الباكر هو مثل تلك الشعلة التي تمُدُّ
الإنسان بطاقة سحرية تجعله نشطًا متلهفًا لاستكمال ما شرع به من
أعمال، وتجعله أيضًا شغوفًا بما يقوم به، وذلك ما يجنِّبه الوقوع في
فخ الملل أو الكلل.

تلك الساعات الباكرة في أول النهار لم توصف بالذهب من فراغٍ،
دعونا نتفق على أن أولئك العظماء الذين نقرأ عنهم في الكتب،
ونسمع بهم في المدارس والجامعات، لا بد وأنه كان لهم نصيبٌ من
النهوض باكراً وترك أسرتهُم وأغظيتهم الدافئة من أجل الشروع في
إتمام ما بدؤوه .

وما يساعدهم على ذلك هو الذهاب إلى الفراش مبكراً من أجل
النوم، فأخذ قسط كافٍ من الراحة كافيلاً بأن يمد الجسم بما يكفي من
الجهود والطاقة اللازمة من أجل بذل ذلك المجهود الفكري والبدني
يوميًا.

عائز من متأهة لآياة

فمن دون شكّ أن صحة وسلامة العقل لابد أن تصاحبها سلامة البدن، ومما لا شك فيه أيضًا أن أنشط ما يكون عقل الإنسان فيه هو ذلك الصباح الباكر.

فهؤلاء الذين ألقوا ترك أسرتهم والنهوض باكراً، لا ينعمون فقط بملكة النشاط والحيوية، بل ويتمتعون أيضًا بخصائص بيولوجية لا تجدها عند غيرهم.

فقلّمًا تجدهم عكري المزاج أو ضحيةً للاكتئاب أو التوتر أو غيرها من الأمراض النفسية، ذلك أن ملكة النهوض مبكرًا من النوم تحفظهم من كل ما قد يحمل ضررًا عليهم من الناحية النفسية.

هذه الملكة ليست حصراً على أشخاص فقط دون آخرين، بل يمكن العمل على اكتسابها عن طريق خطواتٍ عمليةٍ تتطلب الكثير من الإصرار والعزيمة وإن كان ذلك ليس بالسهل.

غير موعّد نومك تدريجيًا:

إذا كنت ممن يصادف صعوبةً في الاستيقاظ باكراً كل صباح، فمن المهم معرفة ما إذا كنت تحصل على قدرٍ كافٍ من ساعات النوم، فمتوسط عدد ساعات النوم لدى الشخص البالغ يقارب ثمان ساعاتٍ يومياً.

حاول الابتعاد عن السّهر قدر الإمكان، وتجنّب الذهاب إلى الفراش متأخراً بالليل، فذلك سيزيد الأمر تعقيداً على ما هو عليه.

قاعدة الربع ساعة:

من أجل الخلود للنّوم في وقت مبكر، عوّد نفسك على الذهاب إلى سريرك ربع ساعةٍ مبكراً كل ليلة، حتى تُكَيِّف نفسك تدريجيًا على مواعيد النوم الجديدة، وستجد نفسك قد أصبحت تأوي إلى فراشك قبل ساعةٍ من موعّد نومك الأصلي بعد مرور أربعة أيامٍ فقط.

استرح قليلاً قبل الذهاب إلى النوم:

لن يكون النوم الهادئ بالشيء السهل الذي تناله كل ليلة، لذا لا بد أن تستفيد من بعض وقتك من أجل الاسترخاء مساءً، حتى يتسنى لجسمك ويتيسر له النوم فيما بعد.

وحبذا لو كان هذا الاسترخاء بعيدًا عن كل ما يشغل البال ويجذبه من شاشات هواتف وحواسيب وأضواء ساطعة وغيرها.

قاوم الكسل والرغبة في النوم صباحًا:

لا بد من أن ينتابك في بادئ الأمر رغبة جامحة في إكمال نومك إبان زنين المنبه صباحًا، بحيث قد تُسكته لا شعوريًا وتعود لمتابعة النوم دون إدراكٍ بما قمت به، وهذا ليس بالشيء الغريب، فاستراق المزيد من الدقائق التي تنعم بها في النوم قد يبدو لك هدفًا غالبًا حينها، لكن كن على يقينٍ أن تلك الدقائق لن تحمل لك معها إلا مزيدًا من التعب والإرهاق، كون ما تقوم به هو نومٌ مجزأً ومتقطعٌ لن يفيدك في شيء.

اضبط منبهك قبل موعد استيقاظك:

ينصح العديد من خبراء الصحة بضبط منبه الاستيقاظ من النوم على توقيتين، أحدهما قبل موعد الاستيقاظ المستهدف بساعةٍ

عائدة من متاهة الحياة

ونصف، كون هذه المدة الزمنية تُعدُّ دورة نوم كاملةٍ يستطيع بعد مرورها الشَّخص الاستيقاظ من النوم دون مشاكل أو صعوباتٍ تُذكر.

تناول فطورًا صحيًا:

عوِّد نفسك بعد النهوض من فراشك على القيام بعباداتٍ جميلة، فتتطلع نفسك وتتوق مع مرور الوقت للاستيقاظ باكراً من أجل القيام بها.

فليكن كأس ماءٍ هو أول ما تُدخله إلى جسمك حتى يتسنى لك ترطيب ذاتك وتصفية جهازك الهضمي، وإن كنت من مدمني القهوة فحاول تأخير شربها حتى لا تقع ضحية ما يسببه الكافيين من توترٍ وضغط نفسي.

تناول فطورًا غنيًا بالحبوب الكاملة والبذور وغيرها، وتجنب السكريات في أول النهار كونها تسبب الإرهاق السريع.

أيام العطلة:

قد تراني أبالغ إن أخبرتك أنه لابد من أن تحافظ على مواعيد استيقاظك حتى في أيام العطلة.

فإذا ما اعتدت السهر والاستيقاظ متأخرًا في أيام إجازتك، فلن يكون من السهل عليك أبدًا العودة إلى ما وصلت إليه من انضباطٍ في النهوض باكراً.

لكن بالموازاة مع ذلك، يمكنك أن تخصص وقتًا بعد الظهر لتأخذ قيلولةً تنعم فيها بالراحة وتحافظ من خلالها على نشاطك اليومي.

"بعضنا يحلم بالنجاح، والبعض الآخر يستيقظ لتحقيقه!"

استيقظ باكراً يا صديقي،
اترك سريرك وغطاءك الدافئ،
انهض واستمر قدماً في تحقيق أحلامك،
دع عنك الكسل والخمول،
دعه للجبناء وضعاف النفوس!
وتسلح بالعزيمة والإصرار والثبات،
توكل على الله وامض قدماً في سبيلك،
حاول معانقة أحلامك واعمل جاهداً على ذلك،
لا تيأس وأنت ماضٍ في طريقك،
قد تتعثر تارةً وتسقط تارةً أخرى،
لكن انهض وحاول من جديد،
وانظر إلى الثريا وصوّب نحو القمر،
فعلى الأقل، إن لم تُصب القمر ستصيب إحدى النجوم!

١٢

اعتزل ما يؤذيك

عائز من متاهة الحياة

في هذا الزمان الذي تكثر فيه العلاقات الاجتماعية وتتعدد فيه الصداقات والمعارف الشخصية وغيرها من أنواع الروابط، لابد للمرء أن يكون انتقائياً في مخالطته للناس والأخذ بأرائهم.

فمن غير المعقول أن يصاحب المرء من في صحبتهم أذى له، أو أن يأخذ بأرائهم ويعمل بها في مسأله الشخصية، في حين يترك من مصادقته لهم لا تجلب له إلا نفعاً واستفادة.

وهذا ما نراه عند أغلبية السُّباب خصوصاً، ففي حين يكون الأولى معاشرتهم لمن يأخذون بيدهم ويذهبون بهم إلى الطريق السويِّ في الحياة، تجد أغلبهم لا يخالطون إلا من سوء أخلاقهم يسبق سمعتهم، ومن لا يخطون بهم إلا نحو الهاوية.

فالوجع لا يأتي فقط ممّن لا نأمن جانبهم، بل قد يأتيك من كل مكان، حتى من ذلك الصديق الذي كنت تخاله أحاً لك، قد يغدر بك في يومٍ من الأيام ويتركك منكسراً لا تعرف لملمةً لشتاتك!

عائذ من متاهة الحياة

"اعتزل ما يؤذيك!"

هذا المنهج الدنيوي الذي سنّه الصّحابي الجليل "عمر بن الخطاب" رضي الله عنه، لا تنحصر صلاحيته في زمانٍ أو مكانٍ معينين، بل تمتد لتشمل جميع الأزمنة والأمكنة.

هذه الكلمات التي تزن ذهبًا، هي عصارةٌ لعدة جلساتٍ من العلاج النفسي ومفتاحٌ للتخلص من جميع العلاقات الشائكة والسامة في حياة الإنسان.

فالفرد لا يقع في التعب النفسي من فراغ، فالوقوع في الأمراض النفسية التي تثقل كاهله لا يكون إلا نتيجةً لكتمان الضرر الذي تتسبب به تلك الضغوط التي تمارس عليه من طرف أفرادٍ آخرين يستهلكون طاقته، ويتركون به انطباعاتٍ حزينةٍ قد تكون كفيلاً لتدمير حاضره ومستقبله.

وكم من جريح القلب لم يستطع لملمةً لجراحه فضلًا منكسرًا مرهق الروح طوال حياته!

عائز من متاهة الحياة

هذه العزلة التي تفرضها على نفسك في العلاقات الضارة ليست بشيء سلبي في حياتك، بل هي بداية الاعتدال والالتزان النفسي بالنسبة لك.

فالعزلة ليست بالشيء السيء إن كانت عزلة عن المفاسد والمضرات.

فمن البديهي أن اعتزالنا الكلي لبعض أنواع الناس كالمقربين من أفراد العائلة قد لا يكون ممكنًا بالرغم مما قد يسببونه لنا من الأذى، في حين أن هناك أنواعًا آخرين قد لا تجد بُدًا من اعتزالهم تمامًا والابتعاد عنهم.

فاعتزال الأذى هناءً وطمأنينةً للروح، ولو لم يكن كذلك لما اعتزل أصحاب الكهف قومهم ولجؤوا إلى مغارةٍ بعيدًا عنهم وعن أذاهم.

فحتى النفس البشرية في بعض أحيائها تجدها تواقّةً لبعض من الوقت تقضيه في انعزالٍ تامٍّ عن محيطها.

عائدة من متاهة الحياة

ساعة، يوم، شهر أو حتى سنة من العزلة في بيتٍ في البادية أو في جزيرةٍ منعزلةٍ عن الناس وعن وسائل التواصل بشتى أنواعها كفيلاً بأن تجعل الإنسان قادراً على إعادة تحليل الأساليب التي يساير بها هذه الحياة، وقادرةً على جبر بعضٍ من تلك الكسور التي أحدثها الآخرون.

عوّد نفسك على خسارة مَنْ لا يُمكنُ لك إلا الحقد والضغينة، ومَنْ صحبته لا تجلب لك إلا الضرر.

فخسارتهم لا تعني نهاية الحياة أو انقطاع الرزق، بل تعني أنك قد اتخذت قراراً يُثبت استقلاليتك وعدم اعتمادك واحتياجك للآخرين.

قد يستطيع المرء التغاضي في بعض الأحيان، لكن في البعض منها لابد من أن يكون جريئاً كفايةً لوضع حدٍّ لكل ما يجلب له الضرر والأذى، بعيداً كل البعد عن العاطفة.

"فكونك مؤذٍ لي سببٌ كافٍ لكي أعتزلك!"

١٣

تَعَلَّمْ قَوْلَ "لَا"!

عائذ من متاهة الحياة

ليس منا من لم يقع ولو لمرة في حياته بمواقف محرجة بحيث قد يُطلب منه فعل أشياء لو قام بها لكان ذلك يصبُّ في غير مصلحته أو فيما هو ضررٌ له.

فكنا نجد صعوبةً ومشقةً في الرفض والتعبير عن ما في خاطرننا، بل وينال منا التردد وعدم الجرأة على الرد والتصريح بـ "لا" في حال تطلب الأمر ذلك.

فأغلب الناس لا يدرون المعنى الحقيقي لـ "لا"، إذ يخلطون بينها وبين ما هو سلمي!

فالسلبية تقتضي بأن تعطي ظهرك للآخرين سواءً أكان باستطاعتك مساعدتهم وتلبية رغباتهم دون الوقوع في فخ الإضرار بنفسك أم لا.

أما "لا" التي نرد بها في حال الرفض القاطع لشيءٍ ما، ليست إلا وسيلةً نخبر بها الآخر أننا لم ولن نسمح له بلعب دور ذلك العامل الخارجي الذي قد يؤثر سلبيًا على قراراتنا، دون إساءة الأدب تجاهه أو تقليل الاحترام في حقه.

عائنة من متاهة الحياة

إن الدور الذي تلعبه "لا" في حياة الإنسان لا يقتصر على الرد بالرفض فقط، بل هي تخبر المتلقي أن مسؤوليات الطرف الآخر وما يتعلق به تبقى خاصةً به، ولا يجب عليه في أي حالٍ من الأحوال تجاوز ذلك الخط الذي يفصل بين ما هو شخصيٌّ لا يمكن مشاركته مع الآخرين، وبين ما قد يظهر له من مصالح مشتركة يمكن نفع الآخرين بها.

ف "اللا" هي تلك الأداة التي تسمح لنا برسم الحدود والفواصل في وجه الآخرين والتصدي لرغباتهم ومتطلباتهم المُجحفَة، وهي ما يجنّبنا الوقوع في فخ العلاقات الزائفة والتي يكون الهدف من ورائها قضاء المصالح ليس إلا.

فعندما تحرك لسانك وتداعب به سقف فمك قائلاً "لا" أو تهزُّ رأسك يمنةً ويسرةً، فأنت تعلن بشكل واضحٍ وصریحٍ أن القرارات التي تتخذها لا ترضخ أو تنحني لأي شكلٍ من أشكال الضَّغط أو التعسُّف من الطرف المقابل.

عائِد من متاهة الحياة

وَأَن تَقْدِيمِك يَدِ الْعَوْنِ مِنْ عَدْمِهَا رَهِيْنٌ فَفَقَطْ بِقَدْرَتِكَ عَلَى ذَلِكَ،
وَلَا يَخْضَعُ لِسَيْفِ الْعِلَاقَاتِ الْاجْتِمَاعِيَةِ الَّتِي قَدْ تَدَخَّلَكَ فِي دَوَامَةٍ لَا
حَصْرَ لَهَا مِنْ مَصَالِحٍ وَرَغْبَاتِ الْآخَرِينَ.

هذه "اللأ" قد تختلف زاوية النظر إليها واستيعاب معناها عند كلِّ
من الطرفين، ففي نظر المتلقي هي عبارةٌ عن وسيلةٍ يُبدي بها الطَّرْفُ
الآخر استياءه ورفضه لكل المقترحات التي عُرضت عليه، إمَّا لكونها
تخالف مبادئه وتضرب بها عرض الحائط، أو لكونها لا تصبُّ في
مصلحته أو أي شيءٍ من هذا القبيل.

وقد تمتد ليراه المتلقي لبننةً أساسيةً لا غنى عنها في عالم الأناية
التي قد يراها طاغيةً على قرارات الآخر.

في حين أنَّ هذه "اللأ" نفسها هي ما يشكل للطرف الآخر مصدرًا
للاستقلالية وعدم الاتكال على الآخرين بشكلٍ كليٍّ، فرفض طلب
شخصٍ ما لا يعني بالضرورة رفض نفس الشَّخص، لكنه يعني عدم
تقبل شيءٍ ما يصدر عنه.

عائدة من متاهة الحياة

هذا لا يعني تحفيزاً على عدم مساعدة الآخرين أو التراخي في ذلك،
فالتعاون والتآزر وغيرها من المبادئ الهادفة لا بد من وجودها
وترسيخها مع الآخرين شريطة ألا يحمل ذلك أي نوعٍ من أنواع الابتزاز
أو الأذى للطرف الآخر.

عائز من متاهة الحياة

يُروى أنّ شابًا كان مفخرًا بين أقرانه، وكان هو أول شخصٍ يخطر على بال أصدقائه عندما يحتاجون لمن يقدم لهم يد العون، فكان لا يرفض لهم طلبًا.

ذات مرةٍ علم هذا الشاب بأمر خيانة صديقه لزوجته، لكنه كان مترددًا في الإفصاح عن ذلك خشية ما قد يحدث نتيجةً لذلك.

الأمر لم يقف عند هذا الحد، بل تجرأ صديقه أن يطلب منه إعارته بيته لقضاء عطلة الأسبوع مع السيدة التي يخون زوجته معها.

كان هذا الشاب في صراعٍ داخليٍّ مع ضميره ومبادئه، فكان مُخَيَّرًا بين المشاركة في هذه الجريمة الأخلاقية وبين الرفض حفاظًا على قيمه التي اشتهر بها بين الناس، وخسارة صديقه المقرب ثمنًا لذلك. لكنه اتخذ القرار الذي رآه صائبًا في قرارة نفسه وكان:

"لا، لن أفعل ما تريد!"

"حاول أن تُعوّد نفسك على قول لا، عندما لا ترغبُ في قول
نعم."

باولو كويلو

عائز من متاهة الحياة

كان هذا الرفض دليلاً على نباهة هذا الشاب وُئبل ضميره، كونه لم يقبل بأن يكون شريكاً في فعلة صديقه الآئمة رغم معرفته السابقة بإمكانية خسارة صداقتهما كنتيجة لهذا القرار.

وهذا ما ينبغي أن يكون عليه الحال في جميع العلاقات الاجتماعية، فإذا كان ثمن محبة الناس لك هي قيمك ومبادئك التي نشأت وتربيت عليها، فالأولى من ذلك خسارتهم والابتعاد عنهم.

في بعض الأحيان تلعب هذه "اللا" دور ذلك الدرع الحصين والمتين ضدَّ رغبات وطلبات الآخرين التي قد تفوق حدَّ تصورك في حجم الاستغلالية والمصلحية التي تفيض بها.

فيكفيك حينئذٍ التصريح بـ "لا" بكل ثقةٍ وحزمٍ حتى تخبرهم وإن كان ذلك بطريقةٍ غير مباشرة، أنه ليس من حقهم أن يطلبوا منك ما أرادوا وكيفما أو وقتما أرادوا دون احترامٍ لمرجعيتك الدينية ولخلفيتك الثقافية، وغيرها مما يُميِّزك عنهم.

عائدة من متاهة الحياة

نفس الأشخاص يعتبرون تلك الحدود التي رسمتها في أوجههم
تحدياتٍ وعوائقٍ وجب عليهم تجاوزها بجميع الوسائل والطرق دون
إلمامٍ بالعواقب أو بما يمكن أن تصير إليه الأمور.

لكن كن على يقينٍ أنّ كل ما تقوم به سيؤتي ثماره مع مرور الوقت،
وستتغلب إيجابيات هذا المنهج الذي تبنيته في علاقاتك مع الآخرين
على سلبياته.

هذا المنهج الذي يبني على كون "طلباتك رهناً بقدرتي
واستطاعتي" وليس العكس، سيمكنك من أن تحظى مع الوقت بمزيدٍ
من المساحة الشخصية التي لم تكن تملكها من قبل، وسيصير الناس
أكثر جديةً عند القدوم إليك عوض اللجوء إليك في كل صغيرةٍ وكبيرةٍ
تهمُّ بهم.

ناهيك عن حجم الاحترام الذي سيكُنُّه لك الآخرون، كونهم
سيلتقطون الرسالة المراد تمريرها إليهم، بعيداً كل البعد عن العصبية
والتمييز.

عائذ من متاهة الحياة

حتى في حال الحيرة لا تتخذ قرارًا بالرفض أو الإيجاب، كل ما عليك فعله هو الرد بكل وقارٍ وأدبٍ جمّ:
"دعني أفكر قليلاً!"

على سبيل المثال، أو غيرها من التعبيرات التي تُغنيك عن التفكير واتخاذ القرارات تحت ضغط التوتر الذي يكون مصدره الطرف الآخر.

فمسايرة هذه العلاقات الحيوانية داخل المجتمع تتطلب الكثير من الصبر والتفكير قبل اتخاذ أي قرارٍ كيفما كان مضمونه.

حتى التمرن على انفرادٍ يعود من دون شكٍّ بالنفع على صاحبه في حال كان الأمر يتطلب ذلك.

قف أمام المرأة وتخيل نفسك في وضعيةٍ يُطلب منك فيها القيام بأشياء لا طاقة لك بها، أو تخالف مبادئك ولا تمتُّ للواقع بصلة، ثم خذ نفسًا عميقًا وأجب بكل ثقةٍ:

"لا، لا أستطيع!"

عائنة من متاهة الحياة

فمن البديهيات ألا نستطيع تلبية كل ما يُطلب منا، وإلا صار ذلك استبدالاً عوض أن يدخل في إطار العلاقات الاجتماعية. لكن المشكلة الحقيقية تكمن في قدرة المرء على استجماع ما يكفي من الجرأة والحزم للإقدام على هذه الخطوة.

فمن غير الخفي أنّ كلمة "لا" لها وقعٌ ليس بالهين على الطرف الآخر، كما أنها ليست بكلمة خفيفة ودافئة على اللسان، بل على العكس من ذلك، هي كلمة لها ثقلها وقد يعتبرها الآخرون طعنةً في الصدر.

فهم بالطبع لن يتقبلوها بصدري رحيبٍ أو أكفٍّ مفتوحةٍ، بل سيولّد ذلك داخلهم نوعاً من الشرارة التي سرعان ما قد تشتعل في قادم الأيام، وذلك ما يدفع الكثيرين للتردّد في أخذ القرارات وإن كانوا على معرفة سابقة بصحتها.

قد يُنمّي ذلك أيضاً داخل الآخرين نوعاً من الحقد والضغينة، وقد يدفعهم لمحاولة ردّ الصاع صاعين إن أتاحت لهم الفرصة لذلك.

عائِد من متاهة الحياة

قد يُقيم هذا الرفض القاطع كذلك وإن كان بطريقةٍ مؤدبةٍ ومحترمةٍ عددًا ليس بالهين من الحواجز والعوائق في وجه تطور العلاقات الاجتماعية.

فردُّ طلب شخصٍ ما بالرفض لا يكون وقعه سهلًا عليه، وإن كان لا يبدي ذلك من خلال ملامح وجهه أو تصرفاته أمامك.

لكنَّ ذلك سرعان ما سيمرُّ وستجد أنك قد حصّنت نفسك ضد تلك الرغبات المُجحفة في حقك، وأن الآخرين قد بدؤوا يُكتون لك من الاحترام ما لم يُكتوه سابقًا.

ف "اللا" هي ذلك الدرع المنيع الذي تحتمي به من أولئك الذين يظهرون فجأةً في حياتك محاولين استغلالك بجميع الطرق سواءً أكانت مشروعةً أم لا، في حين يكون همُّهم الوحيد فقط هو قضاء مصالحهم وحاجاتهم.

١٤

طلبه فريضة

عائدة من متاهة الحياة

في قديم الزمان، كان هناك بحارٌ يدعى "يحيى النحوي"، كان له قاربٌ صغيرٌ يحمل عليه الناس من ضفة النهر وينقلهم إلى الضفة الأخرى.

كان ابن الأربعين سنهً، وكان كل يومٍ يحمل معه عالمين ليوصلهما إلى الضفة الأخرى، فكانا يجلسان في مؤخرة القارب ويشرعان في تدارس كتبهما حتى أثناء رحلتهما القصيرة، وكان البحار يستمع إلى حديثهما وهو يجدف القارب.

وفي يومٍ من الأيام التفت البحار إليهما وخاطبهما قائلاً:

"حديثكما رائع؛ أحبُّ أن أستمع إليكما وأخذ عنكما العلم، حتى أستفيد منه وأفيد به فيما بعد."

فقال له أحد العالمين:

"هذا شيءٌ جميل، عليك بطلب العلم دائماً، في صغرك وحتى في كبرك."

عائنة من متاهة الحياة

فبعد أن أوصلهما ظلّ "يحيى" يفكر في قرارة نفسه ويردّد:

"أنا أريد أن أتعلم، إلى متى سأضيع عمري بلا تعلم، ولكني قد كبرت وأصبح عمري أربعين سنة، لن يمكنني طلب العلم في هذا السن!"

وبينما هو يُفكّر، مرّت بجانبه نملةٌ تحمل فوقها نواة تمر، وتريد أن تصعد بها فوق صخرةٍ كبيرة، فنظر إليها، وقال:

"يا لهذه النملة، تحاول رفع ثقلٍ كبيرٍ عليها، وكلما وقعت التمرة تحملها مرةً أخرى وتحاول مجددًا!"

فقال مخاطبًا نفسه:

"لقد كانت النملة تحاول حمل التمرة رغبةً في الوصول، وأنا أيضًا يجب أن أطلب العلم حتى وإن كنت قد كبرت."

وبالفعل في اليوم التالي ذهب "يحيى" ومضى في طريق طلب العلم، فالعلم لا يعرف صغيرًا ولا كبيرًا.

عائذ من متاهة الحياة

وأخذ يتردد على حلقات العلم، ويستمع لكلام الشيوخ ويدون ما يتعلمه، وسمع ذات يوم الشيخ يقول في إحدى الدروس:
"أغلب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، قد تعلموا وهم كبار السن."

ففرح "يحيى" بشدة وأخذ يزداد في العلم حتى أصبح شيخاً يُعلم غيره وصار عالمًا مشهورًا، وكان دائم القول لطلابه:
"اطلبوا العلم ما دمتم أحياء، ولا تتوقفوا عن طلب العلم حتى وإن كبرتم."

قال رسول الله عليه الصّلاة والسّلام:

"من سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سهل الله له طريقًا إلى
الجنة."

رواه أبوداود والترمذي

عائز من متاهة الحياة

مازالت تراود مخيلتي تلك الذكريات من أيام الطفولة التي كنا نقضيها في الدراسة.

كنا ننهض باكراً كل صباح فنجد طاولة الفطور جاهزةً تنتظر زائريها، مازال مذاق الحليب الساخن الذي كانت تعده لي أمي يتجول بين أطراف لساني، ومازال صوت التلفاز الذي كانت تضبطه أمي على قنوات ترتيل القرآن يداعب مسامعي.

كنا نحزم كتبنا وحقائبنا ونشدُّ الرِّحال إلى مدارسنا، سواءً أكان الجو صحواً أم ممطراً أم غير ذلك.

لم يكن يُلهينا شيءٌ عن الدراسة بل والاستمتاع بها كذلك، فكنا كغيرنا من الأطفال نحب اللهو واللعب بالخارج مع أقراننا، لكن في الوقت ذاته كنا شديدي الלהفة للدراسة.

كنا نتخذ معلمينا قدواتٍ لنا ونعتبرهم أمثلةً نحتمي بها في مشوارنا الدراسي، بل وكنا نعتبرهم آباءً لنا داخل أسوار المدرسة. لم يكن يثنينا شيءٌ عن الاجتهاد بغية تحقيق أعلى العلامات ونيل أولى المراكز بين زملائنا.

عائدة من متاهة الحياة

حتى تلك الحيوية التي كنا ننعم بها في طفولتنا كانت تشكل دفعة قوية من الحماس والإصرار وعدم التراجع بالنسبة لنا.

أما في أيام التخرج فكان يكفينا شرفاً أن نُلبس والدينا قبعة العلم، ونتوج جهودهم التي بذلوها ليل نهارٍ دونما تدمرٍ أو تراخٍ معنا، وننال من رؤوسهم قبلةً تطيب بها أفئدتنا وترتاح بها ضمائرنا بعد طول عناء.

"اطلبوا العلم ولو في الصين!"

لم يكن حثُ ديننا الكريم للناس على الإلمام بشقى العلوم أصنافاً وأنواعاً من فراغ، فهذا العلم هو الذي يرفع حضاراتٍ ويقودها إلى الرقي والازدهار في جميع المجالات، ويُنزل حضاراتٍ أخرى اعتقدت بأنه لا انحطاط بعد شموخٍ ولا ضعف بعد قوة.

هذا العلم الذي يُفرِّق بين أقوامٍ فيُكرم حامله وأصحابه من الناس ويضع الآخرين منزلةً دونهم.

هذا العلم هو ذاك النور الذي يضيء للإنسان دربه ويرشده فيه فيتعرف على مفاتيح مسامرة الحياة من جميع جوانبها، سواءً أكان ذلك من الجانب الاقتصادي أو الاجتماعي أو غير ذلك، فهو من دون شكٍّ سر نهضة الأمم وتطورها، وبه ترفع الرايات وتحقق الأهداف.

هذا العلم ومهما اختلفت سبُل السعي إليه في عصرنا الحالي يظل واحداً من أهم أسس الحياة لدى الإنسان.

عائدة من متاهة الحياة

فلولا الطبُّ لانتشرت الأمراض والأوبئة الفتَّاكة ولمات العديد من الناس جرَّاء ذلك.

ولولا علوم الفلك لما استطاع الناس التعمق في أسرار الكون والتطرق إلى خفايا الفضاء والمجرات والنجوم.

ولولا علوم الهندسة لما استطعنا ركوب الطائرات والبواخر، ولما استطعنا كذلك التَّعالى في البنيان حتى صارت ناطحات سحاب.

فالعلم دائماً يُكريم صاحبه في حياته ويخلِّده بعد مماته، فكل أولئك العلماء النوابغ في مختلف العلوم والمجالات والذين عاشوا في القرون السابقة ومازال صداهم مدويًا إلى وقتنا هذا، لم يعلموا يومًا أنهم سيفنون وستبقى ذكراهم حاضرةً في الأزمنة التي تليهم، ولم يعلموا أيضًا أن ما يؤسِّسونه من علومٍ ونظرياتٍ ستكون السبب في خلودهم في أذهان الناس.

لكن هذا من دون شكٍّ من باب فضل العلم على صاحبه، فالعلم يبقى ويعمَّر عكس غيره من الماديات التي تزول وتفتى.

"ومن العلم ما قتل!"

يُقال "من عاش على شيءٍ مات عليه"، وهذا ما رأيناه للأسف عدة مراتٍ على أرضٍ واقعنا بين جموع المخمورين وأهل الفساد وغيرهم ممن إذا حَلَّوا بأرضٍ ما حلَّ فيها الخراب.

فمن المنطقي أن الذي يعتاد عمل شيءٍ ما منذ نعومة أظافره غالبًا ما سيظل عليه إلى أن تغادر روحه جسده، وكما يقال "من شبَّ على شيءٍ شاب عليه".

هذا يُعطي للعلم طابعًا خاصًا يجعله كالحرز لأولئك الذين يعتنقونه ويضعونه نصب أعينهم، فقلَّمًا تسمع عن عالمٍ في مجالٍ من مجالات العلوم المتعددة تَطال يده ما هو محظورٌ فعله أو مُجرَّم ارتكابه، فكونه غارقًا في علومه منهمكًا في معارفه، يجعله غير متفرغٍ حتى للقيام بأعماله الشخصية، فكيف باقتراف المحظورات من الأفعال.

عائدة من متاهة الحياة

فهؤلاء الذين وهبوا أعمارهم للعلم وفروعه بكل ما تحمله الكلمة من معنى لم يفعلوا ذلك عن عبث، فالعاقل لن يضيّع عمره فيما لن ينفع أو ينتفع به.

فها هو "الجاحظ" واحدٌ من أشهر أدباء العرب في زمانه تسقط عليه رفوف كتبه، فترديه ميتًا.

وها هو العالم النمساوي الشهير "كارل لاندشتاينر" مكتشف الفصائل الدموية تأخذه المنيّة داخل مختبره الطبي بمعهد "روكفيلر".

وها هو الكيميائي الأمريكي "جيلبر لويس" أحد أهم ركائز الكيمياء في العصر الحديث يُعثر عليه ميتًا ملقًى تحت طاولة الأبحاث في مختبره العلمي بجامعة "بيركلي".

ولن ننسى أب الفيزياء الحديثة "ألبرت أينشتاين" الذي لم يتوقف عن أبحاثه وعلومه حتى وهو طريح الفراش في المشفى إلا قبل أيام قليلةٍ من رحيله.

عائذ من متاهة الحياة

بل وحتى تلك الحضارات العظيمة التي نقرأ عنها في الكتب
والمجلدات، ما كان التاريخ ليرسّخ وجودها لولا ما خلفته وراءها من
موروثاتٍ فكريةٍ وثقافيةٍ وعلميةٍ وغيرها.

حتى داخل مجتمعاتنا تجد الشخص المتمكن من العلوم والذي
يبلغ من المعرفة مبلغًا، يحظى بعلاقاتٍ اجتماعيةٍ خاصة، فتجد
معارفه يعاملونه باحترامٍ وجديةٍ ويلجؤون إليه وقت حاجتهم لمعرفة
شيءٍ أو الاطلاع عنه وكأنه قاموسٌ مرجعيٌّ بالنسبة لهم.

حتى نظرة الصغار له تجدها مختلفةً عن نظرتهم لغيره، فهم غالبًا
ما يرون فيه قدوتهم لما حصل عليه من شهاداتٍ جامعيةٍ ووصل إليه
من مناصب أكاديميةٍ تُترجم حبه للعلوم وقدر إمامه بها.

فالعلم من دون شكٍّ كذلك الخلل الوفي الذي تستأمنه على أسرارك
ولا تخشى منه غدراً، ذلك الصديق الذي يُحيي ذكراك بالخير في
غيابك وحتى بعد مماتك.

عائنة من متاهة الحياة

تعلموا وعلموا أولادكم،
أنشئوهم على حُبِّ المعرفة واللَّهفة لها،
علموهم أن الحياة تحلو مع العلم،
وتغدو مُرَّةً في غياهب الجهل،
علموهم أنه ما خاب من تعلَّم وعلم غيره،
وأنه ما أفلح من أعرض عن اكتساب المعرفة ونشرها!
أرشدوهم إلى دروب العلم وخذوا بأيديهم وهم يقطعونها،
أسندوهم إذا تعثَّروا وأنهضوهم إذا سقطوا،
علموهم أن طلب العلم من المهد إلى اللحد،
وأن التعلُّم لا يُقيِّده العمر!
علموهم أن مرارة التعلُّم ماهي إلا لحظات وتزول،
لكن مرارة الجهل تظلُّ مدى الحياة!
علموهم أن العلم نورٌ والجهل ظلمات!

١٥

لا تقلق... فالأرزاق بيد الله!

عائذ من متاهة الحياة

رُوي عن نبي الله "سليمان" -عليه السّلام- أنه في يومٍ من الأيام رأى نملةً تقوم بجرّ حبة قمح بجهدٍ ومشقةٍ إلى جحرها. فقال لها سيدنا "سليمان" -عليه السّلام- وقد علّمه الله عزّ وجل لغة الحيوانات:

"كم يكفيك من حبوب القمح لمدة عام؟"

فأخبرته النملة: "حبتان."

فقال لها سيدنا "سليمان" -عليه السّلام-:

"سوف أضعك في صندوقٍ وأجعل لك حبتين تكفيانك لمدة عام، بدلاً من بحثك وتحملك مشقة العثور على حبوب القمح وحملها إلى جحرك."

وبالفعل أخذ سيدنا "سليمان" -عليه السّلام- النملة وأغلق عليها داخل صندوقٍ ووضع لها حبتين من القمح، ثم جاء إليها بعد مرور عامٍ فوجد النملة قد أكلت حبةً واحدةً وتركت الأخرى، فتعجّب من فعلها وسألها:

عائدة من متاهة الحياة

"ألم تخبريني أنك تأكلين حبتين في السنة؟ وقد تركتكم عامًا كاملاً
ولكنك أكلتِ حبةً واحدةً فقط!"

فقالَت النملة:

"كنت تكفييني حبتان وكان الله لا ينساني ويرزقني، أما عندما أفقلت
عليّ في هذا الصندوق، خفت أن تنساني فأكلت حبةً وادّخرت حبةً
للسنة المقبلة حتى لا أموت جوعاً!"

"الررزق نوعان: ررزقُ يطلبك، ورزقُ تطلبه.

فأما الذي يطلبك فسوف يأتيك ولو على ضعفك.

وأما الذي تطلبه فلن يأتيك إلا بسعيك، وهو أيضًا من ررزقك.

فالأول فضلٌ من الله، والثاني عدلٌ من الله."

الإمام علي بن أبي طالب

عائدة من متاهة الحياة

الرزق أيها الأحبة هو ما يدفع الناس باختلافهم للنهوض في الصّباح الباكر والخروج للعمل بصفةٍ يوميةٍ بغيةٍ تحصيل لقمة العيش لهم ولعائلاتهم.

هو ما يدفعهم للعمل بجِدٍّ رغم التَّعب والإرهاق من أجل تحصيل ماكلهم ومشريهم وملبسهم وغيرها من المتطلبات الضرورية لضمان عيشٍ كريمٍ، وسط عالمٍ تطنى عليه الماديّات بشكلٍ جعل الحياة تدور فقط عليها.

لكن هذا الرزق لا ينحصر فيما يراه الناس ويتصورونه على أنه مالٌ وما جاوره من عقاراتٍ وسياراتٍ فقط، بل يتجاوز ذلك إلى أشكالٍ عدة.

فحسن الخُلق رزقٌ، ولباقة اللسان رزقٌ، والزوج أو الزوجة الصالحة رزقٌ، والعلم رزقٌ أيضًا، بل وحتى توفيقك للصلاة والصيام رزقٌ من ربك.

عائِد من متاهة الحياة

يقول "ابن منظور" في "لسان العرب":

"الرِّزْقُ هو ما تقوم به حياة كل كائنٍ مادياً كان أو معنوياً."

فهذا الرزق الذي تطلبه ينبي من دون شكِّ على جميع مجهوداتك التي تبذلها بغية الحصول عليه.

فالذي ينال شهاداتٍ جامعيةٍ ويجتاز مباريات التوظيف ويبحث هنا وهناك عن لقمة العيش، والذي ينهض كل صباحٍ ويترك فراشه للذهاب للعمل خارجاً، بل وحتى الحيوانات من طيورٍ وسباعٍ عندما تترك أعشاشها وجحورها بحثاً عن فرائسها وما تقطت عليه، فهي تبحث في نفس الوقت من دون شكِّ عن ذلك الرزق الذي يُطلب والذي هو عدالَةٌ إلهيَّةٌ تُنصف ما يبذلونه من جهدٍ وعملٍ.

أما الرزق الذي يَطلبك فكن مطمئناً البال إزاءه، فما هي إلا مسألة وقتٍ حتى يكون بين يديك ونُصب عينيك.

عائدة من متاهة الحياة

فرزق الإنسان مكتوبٌ ومحفوظٌ حتى قبل خروجه من رحم أمه،
فالذي لا ينسى سمكةً في قاع البحر، كيف له أن ينسى عبدًا يسعى ليل
نهارٍ لتحصيل قوته بشئٍ الوسائل المشروعة والمتاحة!

"هل المال يجلب السعادة حقًا؟"

مما لا يختلف عليه عاقلان أنَّ المال من ضروريات الحياة الأساسية في عصرنا الحالي، فهو يسهّل على المرء قضاء أموره بشكلٍ كبيرٍ ويعطيه دفعةً قويّةً في مشواره العملي، ويُمكنه من القيام بأشياء ليست في استطاعة ومقدرة من يفتقر إليه.

فمن دون شكّ أن الحياة دونه متعسّرةٌ وشبه مستحيلة، فوجوده من الأولويّات في عصرنا الذي يرتبط كل شيءٍ فيه تقريبًا بما هو مادي. لكن السؤال الذي يطرح نفسه، هل هذا المال فعلاً هو مصدرٌ للسعادة؟

تلك السعادة التي نغمزنا عندما نحصل على هديّةٍ ماديةٍ قيّمةٍ فنظير فرحًا على سبيل المثال، هي ليست إلا سعادةً مؤقتةً وزائفةً إن صحّ التعبير، وسرعان ما ستتلاشى مع مرور الوقت، فهي متعلّقةٌ بمدى استمرارية ارتفاع الشخص من تلك الهدية، فالأشياء الماديّة سرعان ما يعتاد عليها المرء فتصبح مألوفةً عنده مع مرور الزمن فتبدأ بفقدان قيمتها شيئًا فشيئًا.

عائنة من متاهة الحياة

حتى عند اقتنائنا لمشترياتٍ جديدةٍ على سبيل المثال، تغمرنا
سعادةً ما تلبث أن تغادرنا بسرعة، كون السعادة الحقيقية لا ترتبط
بالماديات من الأمور.

صحيحٌ أن المال قد يزيد من مقدار سعادة المرء أو قد ينقص من
أحزانه في بعض الحالات، لكن لا يمكن له في أي حالٍ من الأحوال أن
يخلق لصاحبه وسطًا يظلُّ فيه سعيدًا مدى حياته.

بخلاف السعادة الحقيقية التي تنبع من صميم القلب وتترجم
بأحاسيس ومشاعر صادقة، وحتى بإيماءاتٍ وحركاتٍ عفوية.

فلو كانت السعادة حقًا متعلقةً بالمال فقط، لما وجدنا كثيرًا من
الناس رغم ضخامة ثروتهم التي تُعدُّ ولا تُحصى غير راضين عن ما هم
فيه، بل وقد تجدهم ضحايا للاكتئاب والأمراض النفسية المزمنة؛
ولما وجدنا آخرين في الوقت نفسه يعيشون في سعادةٍ بالغةٍ وهناء
بالٍ رغم أنهم لا يمتلكون شيئًا غير ذلك المرتب الشهري البسيط، أو
ما يسدون به رمقهم في أفضل الأحوال.

عائز من متاهة الحياة

فالسعادة متباينة في نظر الناس، فمنهم من يراها في الجاه
والمنصب، ومنهم من يراها في المال والغنى، ومنهم من يراها في
تعاطي المخدرات ومنهم من يراها في غير ذلك.

لكن السعادة الحقيقية هبة ربانية تُعطى لبعض النفوس وتُحرم
الأخرى منها، فالسعادة الحقيقية تكمن في كل ما هو إيجابي ومعنوي
في الوقت نفسه.

السعادة تكمن في حبّ الخير للآخرين وترك الحسد والحقد
والبغضاء وغيرها من مساوئ الأخلاق.
السعادة تكمن في القناعة والرّضا بالحاضر من الرزق وترك التذمر
والتشاؤم في الغائب منه.
السعادة تكمن في قوة الإيمان وثباته بالله عزّ وجل.

فإذا كانت السعادة شيئاً معنوياً، فكيف لها ألا تكون متعلقةً
بهذا الإيمان!

فكلّما زاد هذا الإيمان إلا وازدادت معه سعادة المرء، وكلما نقص

عائدة من متاهة الحياة

وضعف، إلا وتراكم مع ذلك المزيد من القلق والاكتئاب والتفكير
السلبي...

خاتمة

قد تكون متعبًا وخائر القوى!

قد تحيط بك المصائب والمشكلات من جميع النواحي!

لدرجة أنك لا تجد مُتَنفَسًا يهدأ فيه بالك ولو لهُنِيَهَاتٍ معدودات،

وقد يصل بك الأمر حدّ الاستسلام في بعض الأحيان.

لكن ضع في بالك دائمًا أنه مادام قلبك ينبض فهناك أمل.

ومادامت روحك تتنفس فهناك رجاء.

امضي ولا تبال!

نحو ذلك البصيص الخافت من النور الذي يلوح في الأفق،

حيث ستجد سكينَةً لبالك وطمأنينَةً لروحك!

الفهرس

- إهداء 5
- مقدمة 9
- مع الله 11
- السّلام عليك يا رسول الله 17
- وبالوالدين إحسانا 25
- كن عند الشّدائد رجلا 41
- توكلوا ولا تتواكلوا 51
- كن حييًّا ولا تكن خجولا 59
- لا تحكم على الناس من مظاهرهم 69
- كن طموحا 81
- اقرأ 93
- إن مع العسر يسرا 105
- كن صباحيًّا 115

- 129..... اعتزل ما يؤذيك
- 135..... تعلّم قول "لا"!
- 147..... طلبه فريضة
- 161..... لا تقلق... فالأرزاق بيد الله!
- 172..... خاتمة

دار القلم للنشر والتوزيع

جميع الحقوق محفوظة



978 9920 626 82 8



د. عمر الكرمة

خروج كلية طب الأسنان بالرباط.
كاتب ومدون مغربي.

وبين زوايا ظلي المظلمة، لمحت ذاك البصيص الخافت من النور يلوح في الأفق.
خطوت إليه مسرعاً، ركضت ثم هرولت تجاهه عثني أجده منقداً مما أنا فيه.
كان ذلك أشبه ما يكون بكايوس مزيج لا ينقضي.
وكان ترايم الخريف حين تتساقط أوراق الأشجار تحكي ما في جيبتي من حزنٍ وغمب!
وكان روجي ضائعةً وسط متاهةٍ لا أدري أين المخرج منها!
انتظرت ثم انتظرت مطولاً تفتح الأزهار التي تفرح عبقاً يُبعث الحواس في فصل الربيع.
لم يكن انتظاري دون جدوى، فقد وجدت لملمةً لشتائي بعد تياهٍ طويل.
وكانني قد وُلدت من جديد!